الطيب صالح

عرس الزين

رواية

دار العودة . بيروت

عرس الزين

رسم الغلاف الفنان : موسى طيبا

يُطلب مِن دَارالعَودَة - بَيروت
كورنيش المزرعة - بناية ريفييرا سنتر
تلفون ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥
تلكس MEREBI ٢٣٦٨٢ LE
ص . ب ١٤٦٢٨٤

قالت حليمة بائعة اللبن لآمنة - وقد جاءت كعادتها قبل شروق الشمس - وهي تكيل لها لبناً بقرش :

« سمعت الخبر ؟ الزين هو داير يعرّس » .

وكادالوعاء يسقط من يدي آمنة .واستغلت حليمة انشغالها بالنبأ فغشتها اللبن .

كان فناء المدرسة «الوسطى» ساكناً خاوياً وقت الضحى، فقد اوى التلاميذ الى فصولهم .وبدا من بعيد صبي يهرول لاهث النفس،وقد وضع طرف ردائه تحت ابطه حتى وقف امام باب «السنة الثانية» وكانت حصة الناظر .

«يا ولد يا حمار . ايه اخّرك ؟»

ولمع المكر في عيني الطريفي :

«يافندي سمعت الخبر ؟»

«خبر بتاع ايه يا ولد يا بهيم ؟»

ولم يزعزع غضب الناظر من رباطة جأش الصبي،فقال وهو يكتم ضحكته :

«الزين ماش يعقدو له بعد باكر» .

وسقط حنك الناظر من الدهشة ونجا الطريفي .

وفي السوق اقبل عبد الصمد على دكان شيخ علي ، محتقن الوجه ، ليس ثمة ادنى شك في انه غضبان. كان له على شيخ علي، تاجر العماري، دين ماطله عليه شهراً كاملاً–وقد قرر ان يخلصه منه ذلك اليوم، بالخير او بالشر .

« علي . أنت يعني قايل انا ما بخلص قروشي منك ، ولاّ فكرك شنو ؟ »

« حاج عبد الصمد . كدى قول بسم الله واقعد، نجيب لك فنجان جبَنة » .

«يا زول جبنتك طايره عليك ، قوم افتح الخزنة دي ادني قروشي ، ولاّ كان ان بقيت ما بي ضمة كان فهمني » .

وبصق شيخ علي على « السّنة » من فمه .

« كدى اقعد انحدّثك بالخبر دا » .

«يا زول انا مو فاضي لك ولا فاضي لي خبيراتك. باقي انا عارفك مستهبل داير تطرتش عليّ قروشي » .

« يمين قروشك حاضرات. كدى اقعد انحكّيلك حكاية عرس الزين »

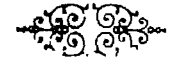
« قستّ عرس منو ؟ »

« عرس الزين » .

وجلس عبد الصمد ووضع يديه على رأسه وظـــل صامتا برهة، وشيخ علي ينظر اليه مغتبطاً بالاثر الذي احدثه. واخيراً وجد عبد الصمد ما يقول :

«اي لا اله لا الله محمداً رسول الله. عليك الرسول يا شيخ علي دار حديث شنودا ؟ »

ولم يخاص عبد الصمد دينه في ذلك اليوم .



ولما انتصف النهار كان الخبر على فم كل واحد . وكان الزين على البئر في وسط البلد يملأ اوعية النساء بالماء ويضاحكهن كعادته . فتجمهر حوله الاطفال ، وأخذوا ينشدون « الزين عرّس ... الزين عرّس ». فكان يرميهم بالحجارة، ويجر ثوب فتاة مرة ، ومرة يهمز امرأة في وسطها ، ومرة يقرص اخرى في فخذها ،والاطفال يضحكون ،والنساء يتصارخن ويضحكن وتعلو فوق ضحكهم جميعاً الضحكة التي اصبحت جزءاً من البلد منذ ان ولد الزين .

يولد الاطفال فيستقبلون الحياة بالصريخ، هذا هو المعروف ولكن يروى ان الزين،والعهدة على امه والنساء اللائي حضرن ولادتها، اول ما مس الارض ، انفجر ضاحكاً . وظل هكذا طول حياته . كبر وليس في فمه غير سنّين، واحدة في فكه الاعلى والاخرى في فكه الاسفل. وامه تقول ان فمه كان مليئاً بأسنان بيضاء كاللؤلؤ . ولما كان في السادسة ذهبت به يوماً لزيارة قريبات لها ، فمرا عند مغيب الشمس على خرابة يشاع انها مسكونة. وفجأة تسمر الزين مكانه واخذ يرتجف كمن به حمى ، ثم صرخ. وبعدها لزم الفراش اياماً.ولما قام من مرضه كانت اسنانه جميعاً قد سقطت ، الا واحدة في فكه الاعلى ، واخرى في فكه الاسفل .

كان وجـه الزين مستطيلاً، ناتىء عظام الوجنتين والفكين وتحت العينين. جبهته بارزة مستديرة، عيناه صغيرتان محمرتان دائماً، محجراهما غائران مثل كهفين في وجهه. ولم يكن على وجهه شعر اطلاقاً. لم تكن له حواجب ولا اجفان، وقد بلغ مبلغ الرجال وليست له لحية او شارب.

تحت هذا الوجه رقبة طويلة. (من بين الالقاب التي اطلقها الصبيان على الزين «الزرافة»). والرقبـة تقف على كتفين قويتين تنهدلان على بقية الجسم في شكل مثلث. الذراعان طويلتان كذراعي القرد. اليدان غليظتان عليهما اصـابع مسحوبة تنتهي بأظافر مستطيلة حادة (فالزين لا يقلم اظافره ابداً) . الصدر مجوف، والظهر محدودب قليـلاً، والساقان رقيقتان طويلتان كساقي الكركي. امـا القدمان فقد كانتـا مفرطحتين عليهما آثار ندوب قديمة (فالزين لا يحب لبس الاحذية والزين يذكر قصة كل جرح من هذه الجروح. مثلاً هذا الشلخ الطويل على القدم اليمنى، الممتد من الرسغ على ظاهر القدم إلى الفرجة بين الأصبع الأولى والثانية. يحـكي الزين قصته فيقول: « الجرح دا يا جماعة ليه حكاية » ويستفزه محجوب قائلاً: « حكاية شنو يا عوير؟ يا مشيت تسرق ضربوك بي غصن شوك » . ويقع هذا موقعـاً حسناً في نفس الزين، فيستلقي على قفاه ضاحكاً، ثم يضرب الأرض بيديه ويرفع

رجليه في الهواء ويظل يضحك بطريقته الفذة ، ذلك الضحك الغريب الذي يشبه نهيق الحمار . وكان ضحكه قد أعــدى الحاضرين جميعاً ، فتحول المجلس إلى قهقهة مــدوية . ويتمالك الزين نفسه ، ويمسح بكم ثوبه الدمع الذي سال على وجهه من الضحك ، ويقــــول : أي ... أي ... مشيت أسرق » . ويستفزه محجوب من جديد : « شنّ مشيت تسرق آمر تمد ؟ يمكن قتّ داير لك شيتن تاكله » . ويمسح الزين وجهه بيديه ويعود للضحك من جديد . ويرجح الحاضرون أن الزين دخل بيتاً ليسرق طعاماً ، إذ أنه كان معروفاً بالنهم ، إذا أكل لا يشبع . وفي الأعراس حين تأتي « سُفر » الطعام ويتحلق الناس حلقات يأكلون ، يتحاشى كل فريق أن يجلس الزين معهم ، إذ أنه حينئذ يأتي في لمح البصر على كل ما في الآنية ، ولا يترك أكلاً لآكل . وقال له عبد الحفيظ : « ماكْ طاري العملة العملتها وقت عرس سعيد ؟ » وأجاب الزين وهويقهقه : « أيّ طاري ... عليك أمان الله الأكل وكتّ أكلته عدمته الحبّة إن كان موجني اسماعيل مقطوع الطاري لحقني » . كان الزين قد أوكل بنقل الطعام في عرس سعيد فكان يمشي جيئة وذهاباً بين « الديوان » حيث اجتمع الرجال و « التُكل » في داخل البيت حيث تقوم النسوة بالطهي . وفي الطريق من التكل إلى الديوان كان الزين يتمهل قليلاً ويأكل ما طاب له الأكل من الوعاء الذي يحمله ، وحين يصل به إلى الناس يكاد

يكون خالياً . وفعل ذلك ثلاث مرات حتى لفت إنتباه أحمد اسماعيل ، فتابعه حتى وقف في نصف الطريق ، ورفع الغطاء عن صينية مملوءة بالدجاج المحمر . وما أن أمسك الزين بدجاجة منها وقربها إلى فمه ، حتى هجم عليه احمد اسماعيل وأشبعه ضرباً . وسأله محجوب مرة أخرى : « ما تقول لنا يا فقرْ مشيت تسرق شنو ؟ » . ولما لاحظ الزين ان الناس حوله قد أرهفوا آذانهم ، اعتدل في قعدته ووضع ذراعيه بين ركبتيه وقال « الصيف الفات وقت حسّ المريق ... كنت متأخر في الساقية ، الدنيا يازول كان القمر يلجلج. رميت توبي فوق كتفي وجيت سادر للبيوت. أقول لك وكت وصلة الرملة العندطرف الحلة ، اسمع لك حس زغاريت ... » وقاطعه محجوب: « اي صدق. دا كان عرس بكري » . واستمر الزين : « اقول لك يا زول قتَ امشي اشوف الحكاية شنو . أتاري ناس فريق الطلحة سارّين العرس . مشيت لقيت القيامة قايمة . الزيطة والزمبليطه والدلاليك والزغاريت . أول شي مشيت أهبش ان كان ألقى لي شيتن آكله .. »

وانفجر المجلس بالضحك ، فقد كان ما قدروا .. « الحريم في التكل أدّني لحيات أكلتها ، وأدّني شيتن مر شربته » .

وقال محجوب : « يبقى دا عرقي آ مسجّم » .

وقال الزين : « لا . مـــو عرقي قال لك أنا المرقي ما يعرفوا.. اقول لك آزول الشي الشربته دا طار لي في راسي. بعدين مر تحت من التكل . دخلت بيت ، القالك كمشة حريم والارياح والدلكه والحلب ما يديك الدرب .. عليّ بالطلاق آزول الريحه سكرتني »

وضحك عبد الحفيظ: «وين المره البطلقها مع الرجال؟» لم يعبأ الزين بهذا،ولكنه استمر يحكي فيالقصة وقداخذته النشوة « وفي الوسط القالك العروس. بنيتن سميحة مكبرتة ومدخنة وملبستها فركة ترمصيص » . وهنا صمت الزين وادار عينيه الصغيرتين في وجوه الحاضرين، وفمه مفتوح وقد برز سناه.ولم يقو محجوب على الصبر ، فأخـذ يستحثه ان يكمل القصة : « بعدين شن سويت؟ »

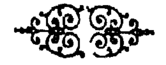
« بعدين نطيب على العروس » .

وحين قال هذا قفز من مكانه كالضفدعة.وضج الحاضرون وانفجر الزين في الضحك واستلقى على بطنـــه وراح يضرب برجليه في الهواء.ثم انقلب على ظهره وقال وهو ما يزال يشهق بالضحك : « مسكت الشافعة عضتنا في خشمها » . وتشهد

محجوب واستغفر. « اقول لك يا زول الحريم طقّن الكواريك والبيت فار والشافعةالعروس بقت تصرخ.وما القا لك الا زول ضرب كرامي بي سكين.اقول لك قت يا مين مسكنها فريت جريه لا من وصلت اهلي». وفجأة استوى الزين جالساً وظهر على وجهه جد بالغ ، وقال يوجه حديثه لمحجوب : « اسمع يا زول. انت داير تعرّس لي بتّك علوية ولا عندك كلام ؟ » فأجابه محجوب بجد وحزم كأنه يعني ما يقول : «البت انا مضيتها ليك . مدحين قدام الناس الحاضرين ديل بعد تحش قمحك وتلم تمرك وتبيعه وتحضر القروش يجي نعقد لك ».هذا الوعد ارضى الزين،وصمت برهة وقد قطب حاجبيه وزم شفتيه وكأنه قد اخذ يفكر في مستقبل حياته مع علوية ومسؤولية القيام باعباء زوجة واطفال. وقال : « خلاص. اشهدوا يا خوانا . الرجل دا مرقت منّه كلمة، باكر بعد باكر ما يجي يفكر » وقال الحاضرون جميعاً ، احمد اسماعيل ، والطاهر الرواسي ، وعبد الحفيظ ، وحمد ود الريس ، وسعيد صاحب الدكان، قالوا انهم شهود على الوعد الذي قطعه محجوب وان الزواج سيتم بأذن الله .

قصة حب الزين لعلوية ابنة محجوب كانت آخر قصة حب له . بعد شهر او شهرين سيسأمها ويبدأ قصة جديدة . لكنه في الوقت الحاضر مشغول بها ، يصحو وينام على ذكرها تجده في الحقل في منتصف النهار، محنياً على«طوريته» والعرق

يتصبب من وجهه، وفجأة يكف عن الحفر ويقولها بأعلى صوته: «انا مكتول في حوش عجوب». وفي الحقول المجاورة يكف عشرات الناس عن حفر الارض برهة حين يسمعون نداء الزين. الشبان يضحكون، وبعض الشيوخ الذين يضيقون احياناً بعبث الزين يهمهمون بتبرم: «الولد المطرطش دا يرغي يقول شنو؟» وحين ينتهي العمل في الحقل عند المغيب ويتراوح القوم الى بيوتهم يمشي الزين من الحقل الى البيت وسط زفة كبيرة من الشبان والصبيان والفتيات الصغار، يتضاحكون من حوله، وهو يختال مزهوا بينهم، يضرب هذا على كتفه، ويقرص هذه في خدها ويقفز في الهواء قفزات، وكلما رأى شجيرة طلح على قارعة الطريق نط فوقها، وبين الحين والحين يصيح باعلى صوته، صياحاً يتردد في ارجاء القرية التي غربت عليها الشمس: «ارروك ... يا ناس الفريق ... ياأهل الحلة ... انا مكتول في حوش عجوب ...»



قتل الحب الزين اول مرة وهو حدث لم يبلغ مبلغ الرجال كان في الثالثة عشرة اوالرابعة عشرة، نحيلا هزيلا كأنه عود يابس. ومهما قال الناس عن الزين، فأنهم يعترفون بسلامة ذوقه ، فهو لا يحب الا اروع فتيات البلد جمالاً واحسنهن ادباً واحلاهن كلاما. كانت عزة ابنة العمدة في الخامسة عشرة من عمرها وقد تفتح جمالها فجأة كما تنتعش النخلة الصبية حين يأتيها الماء بعد الظمأ . كانت ذهبية اللون مثل حقل الحنطة قبيل الحصاد ، وكانت عيناها واسعتين سوداوين في وجه صافي الحسن ، دقيق الملامح ، ورموش عينيها طويلة سوداء ، ترفعها ببطء فيحس الناظر اليها بوخز في قلبه. وكان الزين أول من نبه شبان البلد إلى جمال عزة . ارتفع صوته فجأة ذات يوم في جمع عظيم من الرجال نفرهم العمدة لأصلاح حقله .

ارتفع صوته المبحوح الحاد ، كما يرتفع صوت الديك عند طلوع الفجر : « عوكْ يا أهل الحلة . يا ناس البلد . عزه بنت العمدة كاتلالها كتيل . الزين مكتول في حوش العمدة » . وفوجيء الناس بتلك الجرأة،والتفت العمدة بعنف ناحية الزين وقدتحرك غضب غريزي في صدره . وفجأة كأنما الناس كلهم ، في آن واحد ، أدركوا التباين المضحك بين هيئة الزين ، وهو واقف هنالك كأنه جلد معزة جاف،وبين عزة بنت العمدة،فانفجروا ضاحكين كلهم في آن واحد . ومات الغضب في صدر العمدة. كان جالساً على مقعد تحت ظل نخلة، محمر العينين ، منتفض الشاربين، يحث القوم على العمل. كان رجلاً مهيباً جاداً قل ّأن يضحك ، بيد ان هذه المرة قد ضحك من قول الزين،ضحكته الخشنة المفرقعة ، وصاح به : « الزين .. انبقيت اشتغلت شديد الليلة ، نعرّس لك عزة ». وضحك القوم مرة اخرى مجاراة للعمدة ، ولكن الزين ظل صامتاً . وعلى وجهه جد واهتمام ، ودون ان يشعر وجد ضربات معوله في الارض تزداد قوة وتتابعاً .

ومضى شهر بعد ذلك والزين لا حديث له إلا حبه لعزة وان اباها وعده بزواجها . وقد عرف العمدة كيف يستغل هذه العاطفة ، فسخر الزين في أعمال كثيرة شاقة يعجز عنها الجن . كنت ترى الزين العاشق يحمل جوز الماء على ظهره في

عز الظهر، في حر تئن منه الحجارة، مهرولاً هنا وهناك، يسقي جنينة العمدة. وتراه ماسكاً بفأس أضخم منه يقطع شجرة او يكسر حطباً . وتراه منهمكاً يجمع العلف لحمير العمدة وخيله وعجوله. وحين تضحك له عزة مرة في الاسبوع، لاتكاد الدنيا تسعه من الفرح . وما ان مضى شهر ، حتى شاع في البلد ان عزه خطبت لابن خالها الذي يعمل مساعداً طبياً في ابو عشر ولم يثر الزين ولم يقل شيئاً . ولكنه بدأ قصة جديدة.

استيقظت البلد يومـــاً على صياح الزين : انا مكتول في فريق القوز »: وكانت ليلاه هــذه المــرة فتاة من البدو الذين يقيمون على اطراف النيل في شمال السودان، يفدون من أرض الكبابيش ودار حمر ومضارب الهوادير والمريصاب في كردفان يشح المـاء في اراضيهم في بعض المواسم ، فيفدون على النيل بأبلهم وأغنامهم طلباً للري .واحياناً تلم بهم سنوات قحط حين تضن السماء بالمطر ، فيتساقطون على المنـاهل في ديار الشايقية والبديرية المقيمين على النيل . اغلبهم لا يلبثون حتى تنكشف الغمــة ثم يعودون من حيث أتوا . ولكن بعضاً منهم كانت تستهويهم حياة الاستقرار على وادي النيل، فيبقون. ومن هؤلاء عرب القوز. ظل هؤلاء البدو سنوات طويلة يرابطون على طرف الأرض المزروعة ، يبيعون اللبن ، ويرعـون الغنم ، ويجلبون حطب الوقود، وفي موسم حصاد التمر يجمعونه لأصحابه مقابل أجر قليل . لا يتزاوجون مع السكان الأصليين ، فهم يعتبرون

أنفسهم عرباً خلصا، وأهل البلد يعتبرونهم بدواً اجلافا. ولكن الزين كسر هذا الحاجز. كان لا يستقر في مكان، ما يزال سحابة نهاره سائحاً في البلد من اقصاها إلى اقصاها. وحملته قدماه يوماً الى فريق القوز لغير سبب. فحام حول البيوت كأنه يبحث عن شيء ضاع منه. وخرجت فتاة راع الزين جمالها فتسمر في مكانه. وكانت الفتاة قد سمعت به، فإن شهرته وصلت حتى عرب القوز. فضحكت له وقالت تعبث به: «الزين، بتعرّسني ؟» وتبكم برهة، فقد فتنه جمال الفتاة وأخذته حلاوة حديثها، لكنه ما لبث ان صاح باعلى صوته: «واكتلتي ياناس». وامتدت رؤوس كثيرة من ابواب البيوت وبين فرجات الخيام. وصاحت ام الفتاة: «حليمه الموقفك شنو مع الدرويش دا ؟» وهب اخوان الفتاة على الزين، ففر منهم. ولكن حليمة، حسناء القوز، اصبحت فيما بعد هوسا عنده، لم يفارقه الى أن تزوجت الفتاة. فقد تسامع الناس بها وجاء كثيرون من اثرياء البلد وشبانها المرموقين ووجهائها يخطبونها من ابيها. وتزوجها آخر الامر ابن القاضي.



كان زواج بنت العمدة وزواج حليمة نقطة تحول في حياة الزين . فقد فطنت امهات البنات الى خطورته ، كبوق يدعين به لبناتهن . في مجتمع محافظ، تحجب فيه البنات عن الفتيان، اصبح الزين رسولا للحب، ينقل عطره من مكان الى مكان. كان الحب يصيب قلبه اول ما يصيب، ثم ما يلبث ان ينتقل منه الى قلب غيره ، فكأنه سمسار او دلال او ساعي بريد . ينظر الزين بعينيه الصغيرتين كعيني الفأر ، القابعتين في محجرين غائرين ، الى الفتاة الجميلة ، فيصيبه منها شيء—لعله حب ؟ وينوء قلبه الابكم بهذا الحب ، فتحمله قدماه النحيلتان الى اركان البلد، يجري ها هنا وها هنا كأنه كلبة فقدت جراءها ، ويلهج لسانه بذكر الفتاة ويصيح باسمها حيثما كان ، فلا تلبث الآذان ان ترهف، وما تلبث العيون ان تنتبه . وما تلبث يد فارس من بينهم ان تمتد فتأخذ يد الفتاة. وحين يقام العرس ، تفتش عن الزين ، فتجده اما مسخرا يملأ القلل والازيار بالماء او واقفاً في منتصف الساحة عاري الصدر، في يده فأس يكسر به الحطب او بين النساء في المطبخ يعابثهن ، ويعطينه من آن لآخر قطعا من الطعام يملأ بها فمه، وما يفتأ يضحك ضحكته التي تشبه نهيق الحمار . وتبدأ قصة حب أخرى ... وكان الزين يخرج من كل قصة حب كما دخل، لا يبدو عليه تغيير ما . ضحكته هي هي لا تتغير ، وعبثه لا يقل بحال ، وساقاه لا تكلان عن حمل جسمه الى اطراف البلد .

ووفدت على الزين سنوات خصب ، مفعمة بالحب . فقـد اصبحت امهات البنات يخطبن وده ويستدرجنه الى البيوت فيقدمن له الطعام، ويسقينه الشاي والقهوة. يدخل الزين الدار من تلك الدور ، فيفرش له السرير ، ويقدم له الفطور اوالغداء صينية واوان، ويؤتى بعد ذلك بالشاي السادة بالنعناع اذا كان الوقت ضحى،والشاي الثقيل باللبن اذا كان الوقت عصراً.وبعد الشاي يؤتى بالقهوة بالقرفة والحبهان والجنزبيل ، سواء كان الوقت ضحى او عصراً. وما يسمع النساء أن الزين في دار قريبة حتى يتقاطرن عليه . فهن يستلطفن عبثه . وتحث الامهات بناتهن ان يحثن ويسلمن عليه . والسعيدة منهن من تقع في قلبه موقعاً ، والتي يخرج واسمها على فمه. تلك الفتاة تضمن زوجاً في خلال شهر او شهرين. ولعل الزين، بفطرة فيه، ادرك خطورة مركزه الجديد ، فاصبح يتدلل على امهات البنات ويتردد قبل ان يجيب دعوة احدهن للافطار او للغداء .

كل هذا وفي الحي فتاة واحدة لا يتحدث الزين عنها ، ولا يعبث معها . فتاة تراقبه من بعد بعيون حلوة غاضبة ، كلما رآها مقبلة يصمت ويترك عبثه ومزاحه، واذا رآها من بعد فرّ من بين يديها وترك لها الطريق .

●

وروجت ام الزين ان ابنهـــا ولي من اولياء الله . وقوّى هذا الاعتقاد صداقة الزين مع الحنين. كان رجلاً صالحا منقطعا للعبادة.يقيم في البلد ستة اشهر في صلاة وصوم، ثم يحمل ابريقه ومصلاته ويضرب مصعداً في الصحراء ، ويغيب ستة أشهر ، ثم يعود ، ولا يدري أحد أين ذهب . ولكن الناس يتناقلون قصصاً غريبة عنه . يحلف أحدهم انه رآه في مروى في وقت معين، بينما يقسم آخر أنه شاهده في كرمه فيذلك الوقتنفسه — وبين البلدين مسيرة ستة ايام . ويزعم اناس أن الحنينيجتمع برفقة من الاولياء السائحين الذين يضربون في الأرض يتعبدون والحنين قلمـا يتحدث مع أحد من أهل البلد ، وإن سُئل أين يـذهب ستة اشهر كل عام ، لا يجيب . ولا احد يدري ماذا يأكل وماذا يشرب ، فهو لا يحمل زاداً في أسفاره الطويلة .

ولكن في البلد انساناً واحداً يأنس اليه الحنين ويهش له ويتحدث معه –ذلك هو الزين. كان إذا قابله في الطريق عانقه وقبله على رأسه ، وكان يناديه « المبروك » . وكان الزين ايضاً إذا رأى الحنين مقبلاً، ترك عبثه وهذره وأسرع اليه وعانقه. ولم يكن الحنين يأكل طعامافي بيت أحد، إلا دار اهل الزين يسوقه الزين معه إلى أمه ويأمرها بصنع الغداء أو الشاي أو القهوة. ويظل الزين والحنين ساعاتفي ضحك وكلام. ويحاول أهل البلد ان يعرفوا منالزين سر الصداقة التيبينه وبين الحنين فلا يزيد على قوله : « الحنين راجل مبروك » .

كانت للزين صداقات عديدة من هذا النوع ، مع اشخاص يعتبرهم أهل البلد من الشواذ ، مثل عشمانة الطرشاء ، وموسى الاعرج، وبخيت الذي ولد مشوهاً، ليست له شفة عليا ،جنبه الايسر مشلول . كان الزين يحنو على هـؤلاء القوم ، إذا رأى عشمانة قادمة من الحقل وعلى رأسها حمل ثقيل من الحطب حمله عنها، وهش لها وداعبها . كانت فتاة تخاف من كل أحـــد ، إذا صادفت أمرأة أو رجلاً في طريقهـــا أرتعبت وفزعت ، كأنهم وحوش مفترسة ، ولكنها كانت تأنس للزين وتضحك له ضحكتها البكماء المحزنة التي تشبه صياح الدجّاج . وموسى الذي لا يذكر الناس اسمـه ولكنهم يسمونه الاعرج ، رجل طاعن في السن، حين تراه مقبلاً يتفطر قلبك من كثرةما يعاني في مشيه، الحياة بالنسبة له طريق متعب شاق كان عبداًرقيقاً

لرجل موسر في البلد ، ولما منحت الحكومة الرقيق حريتهم، آثر موسى أن يبقى مع مولاه. كان مولاه شغوفاً به يحبه ويبره ويعامله معاملة الابن. ولما توفي آلت الثروة الى ابن سفيه، فبددها وطرد موسى. وأدركته الشيخوخة وهو معدم لا أهل له، ولا احد يعنيه أمره . فعاش على حافة الحياة في البلد ، كما تعيش بعض الكلاب العجوزة الضالة، التي تأوي الى الخرابات في الليل. وتبحث عن القوت نهاراً في فجوات الحي، يتحرش بها الصبيان. عطف الزين على هـذا الرجل ، وبنى له بيتاً من جريد النخل وأعطاه معزة ملبنة . كان يأتيـه في الصباح فيسأله كيف بات ليله، ويأتيه بعد غروب الشمس ، مالئاً جيوبه بالتمر ، وثوبه منتفخ بالطعام، فيلقيه بين يديه . وأحياناً يجيء ومعه وقيـة شاي أو رطل سكر أو شيء من البن . وتسأل موسى الاعرج عن الصداقة التي بينه وبين الزين فيقول لك وفي عينيه غشاوة من الدمع : « الزين حبابه عشرة ، الزين ود حلال ». ويرى اهل البلد هذه الاعمال من الزين فيزداد عجبهم. لعله نبي الله الخضر لعله ملاك انزله الله في هيكل آدمي زري ، ليذكر عباده ان القلب الكبير قد يخفق حتى في الصدر المجوف والسمت المضحك كصدر الزين وسمته . وبعضهم يقول : « يضع سره في اضعف خلقه » . ولكن صوت الزين لا يلبث ان يرتفع منادياً : « يا أهـل الغريق ... يا ناس الحلة انا مكتول » . فتتحطم هـذه الصورة، وتعود صورة الزين التي يألفها الناس ويؤثرونها .

كل هـذا وفي الحي صبية حلوة ، وقـورة المحيا ، غاضبة العينين ، تراقب الزين في عبثه ومزاحه وهزاره . وجدته يوماً في مجموعة من النساء يضاحكهن كعادته ، فانتهرته قائلة : « ما تخلي الطرطشه والكلام الفارغ تمشي تشوف أشغالك؟» وحدجت النسـاء بعينيها الجميلتين. سكت الزين عن الضحك وطأطأ رأسه حياء ثم انسل بين النساء ومضى في سبيله .



لم تصدق آمنه أذنيها . وسألت حليمة بائعة اللبن ، للمرة العاشرة : « فتى داير يعرّس منـو ؟ » وللمرة العاشرة قالت حليمة : « نعمة » . مستحيل. لا بد ان الفتاة فقدت عقلها . نعمة تتزوج الزين؟ واختلطت الدهشة في صدر آمنـة بالغضب وتذكرت بوضوح ذلك اليوم قبل شهرين حين بلعت كرامتهـا وتحاملت على نفسها وذهبت إلى أم نعمة . كانت قد حلفت ألا تكلم سعدية بعدذلك في حياتها، فقد توفيت أم آمنة وجاء نساء البلد جميعاً يعزينها إلا سعدية . ولم تهتم آمنة ان سعديـة كانت غائبة عن البلد في الوقت الذي توفيت فيه أمها. كانت مريضة في المستشفى في مروى حيث ظلت طريحة الفراش شهراً كاملاً وحـــين عادت من مروى جاءت النساء جميعاً يستفسرن عن صحتها، إلا آمنة. وانقسم النساء فريقين، فريق يخطىء سعدية

ويقلن ان الواجب كان يحتم عليها انتبدأ آمنة بالزيارة، فالموت أكبر من المرض . وفريق من النساء يتحزب لسعدية، ويقلن ان أم آمنة بلغت أرذل العمر على أي حال، والحي خير من الميت وزاد اللغط وتعقدت المشكلة ، وأصرت كل من المرأتين على رأيها ، واصبحت آمنة لا تكلم سعدية وسعدية لا تكلم آمنة . حتى قبل شهرين ، حين أصر ابن آمنه عليها ان تذهب وتخطب نعمة . وبلعت المرأة كرامتها وتحاملت على نفسها ودخلت على سعدية في دارها، وقت الضحى ، وعلى النار قهوة تغلي ، وعلى المائدة فناجين وسكر وأشياء استقبلتها سعدية استقبالاً فاتراً، وعرضت عليهـا القهوة بصوت بارد ، فرفضت آمنة ، ولم ترد سعدية. لم تحلفها ولم تخصصها . لم تقل لها : « الرسول يتعرض لك النبي عليك . الله يهديك تشربي القهوة» . لم ترد على جملة واحدة. وتطلبت آمنة شجاعة كبيرة، لكي تحدث سعدية في موضوع ابنها احمد، ونعمة إبنة سعدية. عرقت وجفت وبلعت ريقها، واخيراً قالت في صوت مرتعش، وهي في داخلها تلعن ابنها الذي عرّضها لكل هذا الاحتقار : « سعدية اختي . انا كت حالفه تاني الحياة ولا المات ما يجيبني ليكي. بحال انت من دون الناس كلهم ابيتي تجي تعزيني في امي. لكين برضه المؤمن مسامح ... دحيني يا ختي انا عافالك . الفرض الجابني ليكي حسع ، الشيء الجيتك من شانه ، احمـد ولدي . ابو احمد وانا عندنا رغبه في نعمه لي احمد ». ولما فرغت من حديثها، شعرت بلسانها كقطعة من الخشب في فمها وأحست بحلقها قـد تقلص

فتنحنحت مرتين وارتعشت يداها . ولم تقل سعدية شيئاً . لو أنها فاهت بكلمة واحـدة لهدأ روع آمنة قليلاً . سعدية دائماً تشعرها بأنهـا أقل منها شأناً . أنها أمرأة جميلة نبيلة الملامح والسلوك ، تحس وأنت تنظر الى وجهها الوقـور السمح بثروة أخوانها السبعة، وأملاك أبيها الواسعة، ونخل زوجها وشجره وبقره ومواشيه التي لا يحصيها العد. هذه المرأة لها أولادثلاثة تعلموا في المدارس واشتغلوا في الحكومة. ولها بنت جميلة يتطلع اليها الفتيان ، والناس يذكرونها بالخير. هذه المرأة التيتجاوزت الاربعين وهي تبدو كفتاة عذراء ، هذه المرأة القليلة الكلام، لماذا لاتقول شيئاً؟واخيراً رفعت سعدية أهداب عينيها الطويلة، ونظرت إلى آمنة نظرة لم تفهمها . لم يكن فيها غضب أو حقد او عتاب أو ود . وقالت بصوتها الهادىء الذي لا يهـتز ولا يثور : « إن شاء الله خير . طبعاً الشورى عند ابو البت.وقت يجي نكلمه » . تذكرت آمنة كل هذا ، وتذكرت كيف انهم رفضوا بعد ذلك ، متذرعين بأن نعمة ما تزال قاصراً لم تصر للزواج بعد. والآن يزوجونها للزين–هذا الرجل الهبيل الغشيم! يزوجونها للزين دون سائر الناس. وشعرت آمنة كأن فيالأمر إساءة موجهة اليها شخصياً ، عن عمد . وارتاعت حليمة بائعة

اللبن حين لاحظت عيني آمنة تلمعان بالغضب . وحسبت ان آمنة أدركت انها غشتها اللبن . فزادته وقالت لآمنة : « كان ها كي ما زيادة عشان ما تزعلي » .

تتابعت الاعوام ، عام يتلو عاماً ، ينتفخ صدر النيل ، كما يمتلىء صدر الرجل بالغيظ . ويسيل الماء على الضفتين ، فيغطي الأرض المزروعة حتى يصل إلى حافة الصحراء عند اسفل البيوت تنق الضفادع بالليل ، وتهب من الشمال ريح رطبة مغمسة بالندى تحمل رائحة هي مزيـج من اريج زهر الطلح ورائحة الحطب المبتل ورائحة الأرض الخصبة الظمأى حين ترتوي بالماء ورائحة الأسماك الميتة التي يلقيها الموج على الرمل . وفي الليالي المقمرة حين يستدير وجه القمر ، يتحول الماء إلى مرآة ضخمة مضيئة تتحرك فوق صفحتها ظلال النخل واغصان الشجر . والماء يحمل الأصوات إلى ابعاد كبيرة ، فإذا اقيم حفل عرس على بعد ميلين تسمع زغاريده ودق طبوله وعزف طنابيره ومزاميره كأنه إلى

بين دلوك . ويتنفس النيل الصعداء ، وتستيقظ ذات يوم فإذا صدر النيل قد هبط وإذا الماء قد انحسر عن الجانبين، يستقر في مجرى واحد كبير يمتد شرقاً وغرباً، تطلع منه الشمس في الصباح وتنطمس فيه عند المغيب . وتنظر فإذا أرض ممتدة ريانة ملساء ترك عليها الماء دروباً رشيقة مصقولة في هروبه الى مجراه الطبيعي. رائحــة الارض الآن تملأ أنفك ، فتذكرك برائحة النخل حين يتهيأ للقاح . الارض ساكنة مبتــلة، ولكنك تحس أن بطنها ينطــــوي على سر عظيم . كأنها امرأة عارمة الشهوة تستعد لملاقاة بعلها. الارض ساكنة ولكن احشاءها تضج بماء دافق، هو ماء الحياة والخصب. الارض مبتلة متوثبة، تتهيأ للعطاء. ويطعن شيء حاد احشاء الارض. لحظة نشوة والوعطاء. وفي المكان الذي طعن في احشاء الارض، تتدفق البذور. وكما يضم رحم الانثى الجنين في حنان ودفء وحب، كذلك ينطوي باطن الارض على حب القمح والذرة واللوبيـــا . وتتشقق الارض عن نبات وثمر .

تذكر نعمة وهي طفلة ان النساء كن اذا جئن لزيارة امها كن يجلسنها على حجورهن، ويمسحن بايديهن على شعرها الغزير المتهدل على كتفيها ، ويقبلنها على خدها وشفتها ويدغدغنها ، ويضممنها الى صدورهن . وكانت تمقت ذلك ، وتتلوى في اذرعهن ، ومرة ضجرت من عبث امرأة بدينة بها ، وشعرت بذراعي المرأة الغليظتين تنطبقان عليها ، كأنها فكا حيوان مفترس ، وبردفيّ المرأة المثقلة وعطرها القوي ، كأنها تخنقها. وتململت نعمة وحاولت ان تتخلص من قبضة المرأة. ولكن المرأة ضمتها الى صدرها بقوة وانقضت على وجهها بشفتيها المكتنزتين تقبلها على رقبتها وعلى خدها، وتشمها. صفعتها نعمة على وجهها

صفعة قاسية . وذعرت المرأة وانفك ذراعاها وأنفلتت نعمة وتركت الغرفة . ولمـــا كبرت ولم تعـــد طفـلة ، اصبحت رؤوس النساء والرجال على السواء تلتفت اليها، حين تمر بهم في الطريق . لكنها لم تكن تأبه لجمالها . وتذكر ايضـــاً كيف ارغمت اباهاان يدخلها في الكتّاب لتتعلم القرآن.كانت الطفلة الوحيدة بين الصبيان.وبعدشهر واحد تعلمت الكتابة، وكانت تستمع الى صبيان يكبرونها يقرأون سوراً من القرآن ،فتستقر في ذهنها. واقبلت على القرآن ، تحفظه بنهم ، وتستلذ بتلاوته وكانت تعجبها آيات معينة منه ، تنزل على قلبها كالخبر السار كانت تؤثر مما حفظته سورة الرحمـــن وسورة مريم وسورة القصص ، وتشعر بقلبها يعتصره الحزن وهي تقرأ عـن أيوب وتشعر بنشوة عظيمة حين تصل الى الآية « واتيناه اهله ومثلهم معهم رحمةمن عندنا». وتتخيل رحمةامرأة رائعة الحسن متفانية في خدمة زوجها ، وتتمنى لو أن اهلها اسموها رحمة . كانت تحلم بتضحية عظيمة لا تدري نوعها . تضحية ضخمة تؤديها في يوم من الايام ، فيها ذلك الاحساس الغريب الذي تحسه حـين تقرأ سورة مريم ونشأت نعمة، طفلة وقورة، محور شخصيتها الشعور بالمسؤولية.تشارك امها في اعباء البيت ،وتناقشها في كل شيء ، وتتحدث الى ابيها حديثاً ناضجا جريئا يذهله في بعض الاحيـان. كان اخوها الذي يكبرها بعامين يحثها على مواصلة التعليم في المدارس ويقول لهـــا : (يمكن تبقي دكتورة ولا محامية). ولكنها لم تكن تؤمن بذلك النوع من التعليم . تقول

لاخيها وعلى وجهها ذلك القناع الكثيف من الوقار : (التعليم في المدارس كله طرطشة . كفاية القراية والكتابة ومعرفة القرآن وفرايض الصلاة) . ويضحك اخوها ويقول : (باكر يجي ود حلال يعرسك وتنفك من حجبك) . افراد اسرتها يقولون لها هذا مع احساس بالخوف، فهم يدركون ان هذه الفتاة الغاضبة العينين الوقورة المحيا، تضم صدرها على امر تخفيه عنهم.
ولما بلغت السادسة عشرة بدأت امها تتحدث عن الفتيان الذين يصلحون ازواجاً لها، الغني والمتعلم والوسيم والذي امه وابوه يصلحان اصهاراً. ولكن نعمة تهز كتفيها ولا تقول شيئاً. ولما جاءت آمنة الى سعدية تحدثها في امر زواج نعمة من احمد وقالت لها سعدية : (الشورى عند ابو البت) كانت تعلم في قرارة نفسها ان (الرأي) لا لأحد غير نعمة نفسها . وكان لا بد من خيارها. فهزت كتفيها وقالت : انا لي الليلة ما بقيت للعرس) وكان من العبث مناقشتها، خاصة وأن سعدية لم تكن متحمسة لأن تصبح حماة لآمنة . لم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى ظهر خطيب آخر: ادريس. فتيات كثيرات في البلد كن يتمنين أن يصبحن زوجات له، فقد كان متعلما، يعمل مدرسا في مدرسة ابتدائية . وكان دمث الأخلاق ، حسن السيرة بين اهل البلد ومع أن عائلته لم تكن من العوائل ذوات الأصل، التي يشار اليها في البلد، إلا أن أباه كون لنفسه مكانة بين الناس بجده وحسن عشرته. كانت اسرة طيبة ميسورة الحال . وكان حاج ابراهيم والد نعمة ، وامها سعدية ، واخوانها الثلاثة ، يميلون إلى قبول

اوريس . بيد أن نعمة كان لها رأي غير ذلك . هزت كتفيها وقالت : (ما بدوره). واحتد حاج ابراهيم في كلامه معها وهم بصفعها. ولكنه توقف فجأة. شيء ما في محياتلك الفتاه العنيده قتل الغضب في صدره. لعله تعبير عينيها، لعله التصميم الرزين على وجهها. وكأنما أحس الرجل بأن هذه الفتاة ليست عاقة ولا متمرده . ولكنها مدفوعة بإيعاز داخلي إلى الإقدام على أمر لا يستطيع أحد ردها عنه. ومن يومها لم يكلمها أحد في أمر الزواج .

وكانت نعمه حين تفرغ إلى نفسها وأفكارها، وتخطر على ذهنها خواطر الزواج ، تحس أن الزواج سيجيئها من حيث لا تحتسب. كما يقع قضاء الله على عباده. مثل مايولد الناس ويموتون ويمرضون . مثل ما يبيض النيل ، وتهب المواصف ، ويثمر النخل كل عام ، كما ينبت القمح ويهطل المطر وتتبدل الفصول كذلك سيكون زواجها، قسمة قسمها الله لها في لوح محفوظ قبل أن تولد، وقبل أن يجري النيل، وقبل أن يخلق الله الأرض وما عليها. لم تكن تحس بفرح او خوف او اسى حين تفكر في هذا، ولكنها كانت تشعر بمسؤولية كبيره ستوضع على كتفيها في وقت ما، قد يكون قريباً ،وقد يكون بعيداً . صاحباتها في الحي، كل فتاة تشب وفي ذهنها صورة معينه عن الفارس الذي يربط فرسه ذات مساء ساجي الضوء خارج الدار،ويدخل ويختطفها من بين أهلها، ويهرب بها بعيداً إلى عوالم سحرية من

السعادة ورغد العيش. أما نعمة فلم ترتسم في ذهنها صورة محددة. كبرت، وكبر معها حب فياض ستسبغه يوما ما على رجل ما قد يكون الرجل متزوجاً له ابناء، يتزوجها على زوجته الأولى قد يكون شاباً وسيما متعلما، أو مزارعاً من عامة أهل البلد مشقق الكفين والرجلين، من كثرة ما خاض الوحل وضرب بالمعول. قد يكون الزين ... وحين يخطر الزين على بال نعمة تحس إحساساً دافئاً في قلبها، من فصيلة الشعور الذي تحسه الام نحو أبنائها. ويمتزج بهذا الاحساس شعور آخر، بالشفقة. يخطر الزين على بالها كطفل يتيم عديم الأهل، في حاجة الى الرعاية انه ابن عمها على كل حال، وما في شفقتها عليه شيء غريب.



لم تكن أم الزين تبالي أين يقضي الزين ليله،فقدكان كروح قلق ليس له مستقر . حيثما أقيم عرس تجد الزين : في فريق الطلحة أو عند عرب القوز ، في قبلي أو بحري ، لا يحبسه برد، ولا عاصفة تهب بالليل ، ولا النيل الطامي في موسم فيضانه . تلتقط أذنه بحساسية نادره زغاريد النساء على بعد أميال، فيضع ثوبه على كتفه ويهرول كأن شيئاً يجذبه إلى مصدر الصوت . وأحياناً يسطع النور فجأة من وراء كثبان الرمل ، حين تعدو السيارات آتية من أمدرمان، فإذا شخص نحيل يحث في الرمل يميل بجسمه إلى الأمام قليلاً وعيناه تنظران الى الأرض ، يحث الخطى متجهاً شرقاً . يرى الركاب الزين فيعلمون ان ثمة حفل عرس في طرف الحي،فاما صاحوا به حين

يمرون عليه ، واما اوقعوا السيارة وتحرشوا به. واحياناً يسير ووراءه كوكبة منهم . وتتقارب زغاريد النساء وتتضح معالمها ويستطيع الزين أن يميز النساء ، أية امرأة زغردت . ثم تبدو الانوار وتبدو اشباح مجتمعة تصعد وتهبط كأنها شياطين في وادي الجن . ثم يظهر الغبار الذي تثيره ارجل الناس في رقصها ، يتشبث بخيوط الضوء . وفجأة ينشق الليل عن نداء يعرفه كل احد : « عوك يا أهل العرس ، ياناس الرقيص ، الزين جاكم ». وإذا الزين قد قفز كالقضاء واستقر في حلقة الرقص . ويفور المكان فجأة ، فقد نفث فيه الزين طاقة جديدة . ومن بعيد يسمع المرء صيحاتهم يرحبون بـه : « ابشر . ابشر . حبابك عشرة » . وحين تموت أصوات النساء في حلوقهن ، وتطفأ الأنوار ، ويتراوح الناس الى دورهم قبيل طلوع الفجر ، يسند الزين رأسه الى حجر أو إلى جذع شجرة ، وينام برهة نوماً خفيفاً كنوم الطير . وحين يؤذن المؤذن لصلاة الفجر ، يقفل عائداً إلى أهله ، فيوقظ أمه لتصنع الشاي .

بيد ان المؤذن قد أذن ذات صباح ، ولم يعد الزين. واحمر الأفق الشرقي قبيل طلوع الشمس ، ثم ارتفعت الشمس قدرقامة الرجل ولم يعد الزين. وأحست أم الزين برجفة خفيفة في جنبها الأيسر فلم تستبشر خيراً. إنها تعتقد أن جنبها الأيسر إذا رجف فإن شراً سيلم بها أو بأحد ذويها لا محالة . وهمت ان تذهب لعم الزين. ولكنها سمعت حركة عند باب الحوش وسمعت باب

الحوش الكبير يصر، ثم سمعت خبطة قوية، وفجأة رأت امامها شيئاً مريعاً . فصرخت صرخة سمعها حاج ابراهيم ابو لمعة في رابع بيت وهو جالس على مصلاته يشرب قهوة الصباح امتلأت الدار بالناس رجالاً ونساء،وحملوا أم الزين فاقدة الوعي. وانشق الناس نصفين ، نصفاً راح مع الأم ، ونصفاً اغلبهم من الرجال التفوا حول الزين . كان على رأسه جرح كبير يصل إلى قريب من عينه اليمنى ، وصدره وثوبه وسرواله ملطخة بالدم . وفقد الناس رشدهم، واخذ عبد الحفيظ يصيح في الزين وقد احمرت عيناه من الغضب: « كلمنا من عمل فيك العمله دي؟ مين الكلب المجرم الضربك ؟» وتصارخت النساء وبعضهن أخذن في البكاء وكانت نعمه تقف عن بعد ، صامته ، وعيناها مركزتان على وجه الزين ، وقد حل محل الغضب فيها حنو عظيم . وقال حاج ابراهيم : « الحكيم » . وكان للكلمة وقع الماء على النار ، فهدأ عويل النساء ، وصاح محجوب : « الحكيم » ، وصاح عبدالحفيظ: «الحكيم» وانطلق احمد اسماعيل على حماره ليحضره.

ولما عاد الزين من المستشفى في مروى حيث ظل اسبوعين كان وجهه نظيفاً يلمع ، وثيابه بيضاء ناصعة . وضحك فلم يرَ الناس كما عهدوا سنين صفراوين في فمه، ولكنهم رأوا صفاً من الأسنان اللامعة في فكه الأعلى،وصفاً من أسنان كأنها من صدف البحر في فكه الاسفل . وكأنما الزين تحول إلى شخص آخر. وخطر لنعمة وهي واقفة بين صفوف المستقبلين أن الزين في الواقع لا يخلو من وسامة .

وظل الزين بعد ذلك زمناً طويلاً ولا حديث له إلا رحلته لمروي. كان يلذ له ان يجتمع حوله رفاقه القدامى، محجوب، وعبد الحفيظ، واحمد اسماعيل، وحمد ود الريس، والطاهر الرواسي، وسعيد التاجر، فيحكي لهم ما جرى له.

« اول ما وصلت يا زول قلعوني هدومي ولبسوني هدوماً نظاف .. السرير يرقش. الملايات بيض زي اللبن. والبطاطين والبلاط يزلق الكراع ... » وقاطعه محجوب متحرشاً: « خلّك من البطاطين والبلاط. كرشك الكبيرة دي ملوها ليك بي شنو ؟ » وارتجف فم الزين كأنه مقبل على وليمة: « هلاّ هلاّ. الأكل في اسبتالية مروى ولا بلاش. هو عاد جنس اكل. شيتن سمك شيتن بيض شيتن لحم شيتن دجاج. » . وقاطعه محجوب مرة اخرى: « الاكل في الاسبتاليات مافلوا شوية؟ كيفن كت بتشبع ؟ » وابتسم الزين ابتسامة كبيرة مدبرة، حتى يظهر اسنانه الجديدة: « بحال التمرجية كان صاحبتي قعد قدام الاكل » . وصاح عبد الحفيظ: « اي لا اله الا الله .. آمنوح. كان مشيت تتلعبس على التمرجيات ؟ » وارتج جسم الزين بضحك مكتوم: « اي ...اي... امانة يا زول مي شافعتن سميحة ». وتدخل ود الرواسي بعد ان كان يستمع ويضحك دون ان يقول شيئاً: « عليك الرسول ا الزين كدي وصفها لينا ». والتفت الزين خلفه كأنه يخاف أن يسمعه أحد، وخفض صوته: « عليك أمان الله يا زول عليها كبرْ

صلبّن » . وانقطع حبـــل الحديث وقتاً ، فقد ضج المجلس بالضحك . وحين استجمع حمد ود الريس أنفاسه قال ، وما يزال في صدره بقية من ضحك : « شن سويت معاها آ مقطوع الطاري ؟ » واصل الزين حديثه كأنه لم يسمع هذا السؤال الأخير : « بنيتين سميحة من أمدرمان.مَرها . ماها مشلخة». وزحف ود الرواسي قريباً من الزين وأعاد سؤاله بطريقة أخرى : (أنت شن أوراك كبُر صلبها ؟) وقال الزين على الفور : (قالوا لك أنا عميان ؟ الشي وقت يبقى قدامي ما بشوفه ؟) وكأن محجوب سر من هذا الرد فقال وهو ينظر إلى ود الريس : (الداهي لجيض . ساكت قايلنه عويد) . ووضع الزين يديه خلف رأسه ومال إلى الوراء قليلا، ثم قال ببطء وعلى وجهه ابتسامة خبيثة : (دايرين يا جماعة تعرفو شن سويت لها ؟) وقال ود الريس بلهفة : (الرسول آ الزين حدثنا شن سويت لها) . واتسعت ابتسامة الزين ، ثم فتح فمه ليتكلم ، فانعكس شيء من ضوء المصباح الكبير المعلق في دكان سعيد على أسنانه . وفجأة ، وفي وقت واحد ، قفز الزين واقفاً كأن عقربا لدغته ، وقفز أحمد اسماعيل ، وقفز محجوب والطاهر الرواسي ، وحمد ود الريس . وصاح عبد الحفيظ : (امسكوه) . لكنه كان أسرع منهم . في لمح البصر كان الزين قد أمسك بالرجل ورفعه في الهواء بعنف ثم رماه في الأرض . ثم شده من رقبته . وانكبوا كلهم عليه،

أحمد اسماعيل امسك بذراعه اليمنى ، وعبد الحفيظ أمسك بذراعه اليسرى ، والطاهر الرواسي أمسك به من وسطه ، وحمد ود الريس أمسك بساقيه ، وكان سعيد يزن شيئاً في دكانه ، فخرج مسرعاً وأمسك بساقي الزين أيضاً ، لكنهم لم يفلحوا .

تدفقت في جسم الزين النحيل قوة مريعة جبارة لا طاقة لأحد بها. أهل البلد جميعاً يعرفون هذه القوة الرهيبة ويهابونها، وأهل الزين يبذلون جهدهم حتى لا يستعملها الزين ضد أحد . انهم يرتعدون روعاً كلما ذكروا أن الزين أمسك مرة بقرني ثور جامح استفزه في الحقـــل ، أمسك به من قرنيه. ورفعه عن الأرض كأن حزمة قش وطرح به ثم القاه أرضاً مهشم العظام، وكيف انه مرة في فورة من فورات حماسه قلع شجرة سنط من جذورها وكأنها عود ذرة . كلهم يعلم أن في هذا الجسم الضاوي قوة خارقة ليست في مقدور بشر ؛ وسيف الدين ، هذه الفريسة التي انقض عليها الزين الآن، انه لا محالة هالك. واختلطت اصواتهم برهة . كان الزين يردد في غضب: (الحمار الدكر لازم أكتله) – والحمار الدكر أقصى ذم يلحقه الزين برجل . وأرتفع صوت عبد الحفيظ في توتر وخوف : (الرسول الزين . عليك الله خليه) . وأخذ محجوب يشتم في يأس . وكان أحمد اسماعيل أصغرهم سناً وأقواهم ، ولما أعيته الحيلة عض الزين في ظهره . وكان الطاهر الرواسي رجلاً مشهوراً

بقوته . كان في بحثه عن السمك في الليل يعوم النيل ذهاباً وجيئة وينطس في الماء نصف الساعة فلا ينقطع نفسه . لكن قوته لم تكن شيئاً بجانب الزين . وفي ضوضائهم سمعوا شخيرا يصدر من حلق سيف الدين ، ورأوه يضرب برجليه الطويلتين في الهواء . وصاح محجوب : (مات . كتله) .

لكن صوت الحنين أرتفع هادئـاً وقوراً فوق الضجة : (الزين . المبروك . الله يرضى عليك) وأنفكت قبضة الزين ووقع سيف الدين على الارض ، هامداً ساكناً . ووقع الرجال الستة دفعة واحدة ، فقد فاجأهم صوت الحنين وباغتهم الزين بسكوته المفاجيء ، فكأن حائطاً أمامهم كانوا يدفعونه ، أنهد بغتة . ومضت برهة قصيرة جداً ، مقدار طرفة العين ساد فيها صمت كامل ، لا بد أنه كان صمتاً مزيجاً من رعب وحيرة وأمل . بعد ذلك جاشت الحيـاة فيهم مرة أخرى وتذكروا سيف الدين . أنكبت رؤوسهم عليه ، ثم صاح محجوب بصوت فرح مرتعش (الحمد لله . الحمد لله) . وحملوا سيف الدين ووضعوه على كنبة أمام دكان سعيد . وفي أصوات متوترة خافتة أخذوا يعيدونه إلى الحيـاة . حينئذ فقط تذكروا الزين ، فرأوه جالساً على مؤخرته ويداه بين ركبتيه مطأطئاً رأسه . وكان الحنين قد وضع يده على كتف الزين في حنان بالغ . كان يتحدث اليـه في صوت حازم لكنه مليء بالحب : (الزين المبروك . ليه عملت كده ؟)

وجاء محجوب وأنتهر الزين ، لكن الحنين نظر اليه نظرة أسكتته. وبعد برهة قال محجوب للحنين : لو ما كت جيت يا شيخنا كان كتله . وأنضم اليهم أحمد اسماعيل والطاهر الرواسي.وبقي عبد الحفيظ وسعيد التاجر وحمد ودالريس مع سيف الدين . وبعد برهة قال الزين وهو مـــا يزال مطأطيء الرأس ، مردداً كلام محجوب : « ان كت ما جيت ياشيخنا كت كتلته. الحمار الدكر . وقت ضربني في راسي بالفاس قايل ماش اسكت له » .

لم يكن في صوته غضب. كان صوته أقرب الى مرحه الطبيعي منـه الى الغضب . ومرت في الحاضرين رعشة مرح خفيفة ، لكنهم ظلوا صامتين . وقـال الحنين : (لكين انت ما كت غلطان ؟)

وظل الزين صامتاً . فقال الحنين مـواصلا كلامه (متـين سيف الدين ضربك بالفاس في رأسك ؟ فأجاب الزين ضاحكاً ووجهه مشبـع بالمرح : (وقت عرس أخته). واستمر الحنين وفي صوته هو الآخر رنة مرح : (شن سويت لي أختـه يوم عرسها ؟)

(اخته كانت دايراني انا.مشو عرّسوها للراجل الباطل داك)

وضحك احمد اسماعيل بالرغم منه . وقال الحنين في صوت اكثر رقة وحنانا : (كل البنات دايراتنّك يا لمبروك . باكـر

تعرّس احسن بت في البلد دي). واحس محجوب بخفقة خفية في قلبه . كان فيه رهبة دفينة من اهل الدين ، خاصة النساك منهم أمثال الحنين. كان يهابهم ويبتعد عن طريقهم ولا يتعامل معهم . وكان يحاذر نبوءاتهم ويحس بالرغم من عدم اهتمامه الظاهري ، بأن لهـا اثراً غامضاً . (نبوءات هؤلاء النساك لا تذهب هدراً) ، يقول في سره . لعل هذا هو الذي جعله يقول بصوت مرتفع فيه رنة واحتقار : (منو البتعرّس البهيم دا؟ كان على العليّة ، داير يجيب لنـا جنيّة). ونظر الحنين الى محجوب نظرة صارمة، ارتعدت لها فرائص محجوب لولا انه تشجع ، وقال : (الزين مو بهيم . الزين مبروك . باكر يعرّس احسن بت في البلد) . وفجأة ضحك الزين ضحكة بريئة ، ضحكة طفل ، وقال : (كت داير أموته . الحمار الدكر . يفلقني بالفاس عشان اخته دايراني انا ؟) فقال الحنين بحزم : (هسعين دايرنك تصالحه . خلاص الفات مات . هو ضربك . وأنت ضربته) . ونادى سيف الدين ، فجاء بقامته الطويلة وحوله سعيد وعبد الحفيظ وحمد ود الريس . فقال الحنين للزين (قوم سلم فوق رأسه). فقام الزين دون أي اعتراض وامسك برأس سيف الدين وقبله. ثم أهوى على رأس الحنين واشبعها قبلا وهو يقول : (شيخنا الحنين. ابونا المبروك) . وكانت لحظة مؤثرة اثارت الصمت في نفوس اولئك الرجال . ودمعت عينا سيف الدين وقال للزين : (انا غلطان في حقك . سامحني) وقام وقبل رأس الزين ثم امسك بيد الحنين وقبلها . وجاء

الرجال كلهم ، محجوب ، وعبد الحفيظ ، وحمد ود الريس ، والطاهر الرواسي، واحمد اسماعيل، وسعيد التاجر، كل واحد منهم امسك بيد الحنين في صمت وقبلها . وقال الحنين بصوته الرقيق الوديع : (ربنا يبارك فيكم . ربنا يجعل البركة فيكم) ووقف وامسك ابريقه في يده . فسارع محجوب يستضيفه : (لازم تتمشى معانا الليلة) . لكن الحنين رفض بلطف وقال وهو يمسك بيده الاخرى كتف الزين : (المشا في بيت المبروك) . وغابا معاً في الظلام . رف على رأسيهما برهة قبس من ضوء المصباح المعلق في دكان سعيد ، ثم انزلق الضوء عنهما كما ينزلق الرداء الحريري الأبيض عن منكب الرجل . ونظر محجوب الى عبد الحفيظ ونظر سعيد الى سيف الدين، ونظروا كلهم بعضهم الى بعض وهزوا رؤوسهم .

●

بعد هذا الحادث باعوام طويلة ، حين اصبح محجوب جداً لاحفاد كثيرين ، كذلك اصبح عبد الحفيظ والطاهر الرواسي والباقون، وحين اصبح احمد اسماعيل ابا وصارت بناته للزواج، كان اهل البلد — وبينهم هؤلاء — يعودون بذاكرتهم الى ذلك العام ، والى حادث الزين والحنين وسيف الدين الذي وقع امام دكان سعيد. الذين اشتركوا في ذلـــك الحادث يذكرونه برهبة وخشوع ، بما فيهم محجوب الذي لم يكن يأبه لشيء من قبل. لقد تأثرت حياة كل واحد من اولئك الرجال الثمانية ، ابطال الحادث ، بطريقة أو باخرى . وفي مستقبل ايامهم، سيستعيد هؤلاء الرجال الثمانية ، يستعيدون فيما بينهم ، آلاف المرات ، تفاصيل الحادث . وفي كل مرة، كانت الحقائق تتخذ وقعاً اكثر سحرا. يذكرون في عجب كيف ان الحنين هل عليهم من حيث لا يعلمون، في اللحظة ، عين اللحظة ليس قبل ولا بعد ، حين ضاقت قبضة الزين على خناق سيف الدين وكادت تودي به ، بل أن بعضهم يجزم ان سيف الدين قد مات بالفعل: لفظ نفسه الاخير ، ووقع على الارض جثة هامدة . وسيف الدين نفسه يؤكد هذا الزعم . يقول انه مات بالفعل . وفي اللحظة التي

ضاقت فيها قبضة الزبن على حلقه ، يقول انه غاب عن الدنيا البتة ، ورأى تمساحاً ضخماً في حجم الثور الكبير فاتحاً فمه. وانطبق فكا التمساح عليه،وجاءت موجة كبيرة كأنها الجبل. فحطمت التمساح في هوة سحيقة ليس لها قرار.فيهذا الوقت، يقول سيف الدين انه رأى الموت وجهاً لوجه . ويجزم عبد الحفيظ ، وقد كان اقرب الناس الى سيف الدين حين عاد الى وعيه ، ان اول كلمات فاه بها،حين جاش النفس في رئتيه من جديد ، اول شيء تفوه به حين فتح عينيه ، انه قال: «اشهد الا اله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله » .

ومهما يكن فمما لا شك فيه ان حياة سيف الدين ، منذ تلك اللحظة ، تغيرت تغيراً لم يكن يحلم به أحد . كان سيف الدين الابن الوحيد للبدوي الصائغ – سمي الصائغ لان تلك كانت حرفته في بداية حياته ، ولما اثرى ولم يعد صائغاً،لصق به الاسم فلم يفارقه . كان البدوي رجلا موسراً ، ولعله أثرى رجل في البلد . جمع بعض ثروته بعرق جبينه ، ومن الصياغة والتجارة والسفر ، وبعضها آل اليه عن طريق زوجته. كان كما يقول اهل البلد ، رجلاً (اخضر الذراع) ، لايمس شيئاً الا تحول بين يديه الى مال . في اقل من عشرين عاماً ، كون من العدم ، ثروة بعضها ارض وضياع ، وبعضها تجارة منتشرةعلى طول النيل من كرمة الى كرمة ، وبعضها مراكب موسقة بالتمر والبضائع تجوب النهر طولاًوعرضاً، وبعضها ذهب كثير تلبسه زوجته وبنـــاته في شكل حلي يملأ رقابهن وايديهن .

ونشأ سيف الدين ولداً واحداً بين خمس بنات ، تدلله امه ، ويدلله أبوه، وتدلله اخواته الخمس. فكان لا بد ان يفسد. او كما يقول اهل البلد، كان لا بد ان ينشأ هشا رخوا، كالشجيرة التي تنمو في ظل شجرة اكبر منها ، لا تتعرض للريح ولا ترى ضوء الشمس . مات البدوي وفي حلقه غصة مريرة من أبنه ، انفق عليه مالاً كثيراً لكي يتعلم، فلم يفلح. وانشأ له متجراً في البلد فأفلس في شهر . ثم الحقه بورشة ليتعلم الصناعة فهرب . وبعد لأي، ووساطة وتشفع ، نجح في تعيينه موظفاً صغيراً في الحكومة لعله يتعلم كيف يعتمد على نفسه. لكن لم تمضي أشهر حتى جاءته ألانباء تترى ، من أفواه ألأعداء وألاصدقاء ، من الشامتين وألمشفقين على السواء، أن أبنه يبيت ليله كله في خمارة ولا يرى المكتب ألا مرة أو مرتين في ألاسبوع، وأن رؤساءه انذروه مراراً وهددوا بفصله من العمل . فسافر الرجل الى المدينة وعاد يسوق أبنه كالسجين. وحلف ليسجننه طول حياته في الحقل – كالعبد الرقيق ، هكذا قال .

ومضى عام على سيف الدين وهو يجمع العلف للبقر ويرعى الماشية على أطراف الحقل سحابة نهاره ، يزرع ويحصد ويقطع ويتأوه . ومع ذلك فلم يعدم تسلية بالليل. كان يعرف أماكن صنع الخمر ، ويصادق الجواري اللائي يصنعنها – (الخدم) ؛ كما يقول أهـل البلد . كن رقيقاً أعطي حريته ، بعضهن هاجرن من البلد ، وتزوجن بعيداً عن موطن رقهن . وبعضهن تزوجن الرقيق المعتقين في البلد وعشن

حياة كريمة، بينهن وبين سادتهن السابقين ود وتواصل وبعضهن لم تستهوهن حياة الاستقرار ، فبقين على حافة الحياة في البلد ، محطاً لطالب الهوى واللذة. والحق ان مجتمع الجواري هذا كان شيئاً غريباً، فيه روح المغامرة والتمرد والخروج على المألوف. هنالك في طرف الصحراء، بعيداً عن الحي، تقبع بيوتهن المصنوعة من القش . بالليل ، حين ينام الناس ، ترتعش من فرجاتها أضواء المصابيح وتسمع منها ضحكات مخمورة نشوى. ضاق بها أهل البلد فأحرقوها، لكنها عادت الى الحياة مثل نبات الحلفا، لا يموت . وطردوا سكانها وعذبوهم بشتى السبل ، لكنهم لم يلبثوا ان تجمعوا من جديد ، كالذباب الذي يحط على بقرة ميتة. وكم من شاب مراهق، خفق قلبه في جنح الظلام حين حمل اليه الليل ضحكات الجواري وصياح المخمورين . في تلك (الواحة) على حافة الصحراء ، شيء مخيف ، لذيـــذ رهيب ، يغري بالاستكشاف . ولم يكن عسيراً على سيف الدين ان يجد طريقة اليها . هنالك كان يقضي لياليه ، وكانت له من بينهن خليلة . كل هذا تحمله ابوه في صبر. كانت الأخبار تأتيه، فكان يتغاضى احياناً، وأحياناً يثور . لكن صبره نفذ حين جاءه سيف الدين ذات ليلة، وهو على سجادته بعد صلاة العشاء. كانت تفوح من فمـــه رائحة الخمر. وقال له، بصوت أجش من فعل الشراب والسمر ، انه يحب الساره (احدى الجواري) ويريد ان يتزوجها . اسودت الدنيا في وجه الرجل وفقد صوابه . ابنه الوحيد سكران ، فاسق ، يقول له ، وهو على مصلاته ، انه

« يحب » – الكلمة التي تثير في عقول الآباء في البلد كل معاني البطالة والخمول وعدم الرجولة – وانه يريد أن يتزوج جارية ماجنة فارغة العين... قام الأب وضرب ابنه ضرباً قاسياً مبرحاً. وجاءت الأم تولول ، واجتمع الناس ، وأخيراً خلصوا الابن من يد الأب وهو بين الحياة والموت . وحلف الأب أن الولد الفاسق – هكذا قال – لا يبيت ليلة واحدة تحت سقف بيته ، وانه ليس ابنه وانه براء منه قضى سيف الدين ليلته في بيت خاله ، وفي الصباح اختفى . وعاش البدوي الصائغ بقية حياته مثل رجل به عاهة . كان الألم يحز في قلبه ، ووجهه نحيل معروق كوجوه المرضى بالسل. كان يقول ان ابنه مات، وكان أحياناً إذا خانه لسانه وذكر ابنه ، يذكره كأنه مات بالفعل .

وكانت تترى على البلد أخبار مريعة عن سيف الدين، كيف أنه سجن في الخرطوم بتهمة السرقة ، وكيف انه اتهم مرة بقتل رجل في بور سودان وكاد يشنق لولا انهم وجدوا القاتل الفعلي في النهاية . وكيف أنه يعيش « صائعاً » سفيهاً فاسقاً مع العاهرات في كل مدينة يحل فيها . يقولون مرة انه يعمل حمالاً يحمل بالات القطن على ظهره في الميناء . ومرة يقولون انه يعمل سواقاً لسيارة شاحنة بين الفاشر والأبيض وأحياناً يقولون انه يزرع القطن في طوكر . وحاول أعمامه وأخواله إقناع أبيه بأن يكتب وصية يترك فيها ثروته كلها لزوجته وبناته . كل الرجال العقلاء في البلد أمنوا أيضاً على صواب

هذا الرأي لكن الأب كان يتهرب دائماً ويتعلل بأنه سيفعل ذلك حين يحس بدنو أجله ، وانه ما زال قوياً لا حاجة به إلى كتابة وصية. لكن الرجال العقلاء كانوا في مجالسهم يهزون رؤوسهم حسرة ، ويقولون ان البدوي ما زال يأمل ان ابنه سيعود إلى صوابه . شيء ما ، لم يفهمه أهل البلد، منع الرجل من اتخاذ الخطوة الحاسمة : حرمان ابنه من الميراث .

وفي ليلة من ليالي شهر رمضان ، مات البدوي على مصلاته بعد أن صلى التراويح . كان رجلاً طيباً فمات ميتة كل الرجال الطيبين : في شهر رمضان ، في الثلث الأخير منه ، وهو الثلث الأكثر بركة ، على مصلاته ، بعد أن صلى التراويح . وهز أهل البلد رؤوسهم وقالوا « يرحم الله البدوي . كان رجلاً طيبا . كان يستاهل ابنا خيرا من ابنه الفاسق ذاك » . وذات يوم ، والناس ما زالوا على (فراش البكاء) وقد فرغوا لتوهم من إقامة (الصدقة) دخل عليهم سيف الدين . كان يحمل في يده عصا غليظة من النوع الذي يستعمل في شرق السودان . ولم يكن معه متاع على الاطلاق. كان شعره منفوشاً كأنه شجيرة سيال ، ولحيته كثة متسخة ، ووجهه وجه رجل عاد من الجحيم . لم يسلم على أحد، وتجنبته كل العيون . لكن عمه الأكبر قام وبصق على وجهه . ولما وصل النبأ بقدومه إلى أمه في الجناح الآخر من البيت وهي وسط الحريم على (فراش البكاء) ولولت من جديد كأن زوجها مات لتوه ، وولولت أخوات سيف الدين ، وعماته

وخالاته ، وفار جناح الحريم في البيت وماج . إلا أن العم قام اليهن وأنتهرهن فسكتن .

كل هذا لم يمنع سيف الدين ان يضع يده على أموال أبيه ، كل ما أستطاع عمله أعمامه وأخواله أنهم خلصوا نصيب أمه وأخواته ، وبقي أغلب الثروة في يده . هنا ايضاً تبدأ حياة العذاب لموسى صديق الزين - موسى الاعرج - كما يسميه أهل البلد . طرده سيف الدين بحجة أنه لم يعد رقيقاً ، وانه ليس مسؤولاً عنه . وعاش سيف الدين بعد هذا حياة مستهترة ، زاد في استهتارها توفر المال في يده . كان في سفر متواصل ، مرة في الشرق ومرة في الغرب ، يقضي شهراً في الخرطوم وشهراً في القاهرة وشهراً في اسمرا ، ولا يجيء البلد إلا ليبيع أرضاً أو يتخلص من ثمر . كان نوعاً من الناس لم يعرفه أهل البلد في حياتهم ، يجافونه كما يجافى المريض بالجذام . حتى أقرب الناس اليه ، عمومه وأخواله ، لم يكونوا يأمنون في بيوتهم ، فسدوا الباب في وجهه مخافة أن يفسد أبناءهم أو يفسق ببناتهم . وفي احدى زياراته المتقطعة للبلد وجد عرس اخته - فإن أهله كانوا يتجنبون حضوره لأفراحهم ولم يكن هو بطبعه يحضر مأتماً . وكاد ذلك العرس ينقلب بسببه إلى مأساة . أولاً حادثة الزين . جاء الزين كعادته في مرحه وهذره ولم يكن أحد يأبه له . لكن سيف الدين لم يعجبه ذلك فضربه بفأس على رأسه . وكادت المسألة تنتهي بالسجن ، لولا تدخل العقلاء من أهل البلد الذين قالوا أن سيف الدين لا يستحق الوقت الذي ينفقونه عليه في المحاكم : ثانياً كاد

العريس يغير رأيه في آخر لحظة لأنه تشاجر مع سيف الدين أخي العروس ومرة أخرى تجمع العقلاء من أهل البلد ، بما فيهم أبو العريس ، وقالوا ان سيف الدين ليس منهم ، وان حضوره العرس شر لا يستطيعون رده . ثالثاً ، في الأسبوع الأخير من حفل الزواج انهمر على الدار عشرات من الناس الغرباء الذين لم يرهم أحد من قبل . نساء ماجنات ورجال زائغو النظرات ، وصعاليك ، وسفهاء ، جاؤوا من حيث لا يدري أحد . كلهم أصدقاء سيف الدين دعاهم لحفل زواج أخته . وهنا لم يجد أهل البلد بدأ من القيام بعمل . قبل أن يستمر هؤلاء الضيوف في جلساتهم إذا بصف من رجال البلد ، يتقدمهم أحمد اسماعيل ، ثم محجوب، ثم عبد الحفيظ،فالطاهر الرواسي ، فحمد ود الريس ، وأعمام سيف الدين وأخواله ، نحو من ثلاثين رجلاً في أيديهم عصي غليظة وفؤوس . أغلقوا الأبواب عليهم وأشبعوهم ضربــاً ، وأكثر من ضربوا منهم سيف الدين . ثم ألقوا بهم في الطريق . وبينما البلد بأسرها تضج من ذلك البلاء الذي اسمه سيف الدين ، إذا به فجأة بعد (حادث الحنين) يتغير كأنه ولد من جديد .

لم يصدق الناس عيونهم بادىء الأمر ، ولكن سيف الدين أخذ كل يوم يأتي بجديد . سمعوا أولاً انه ذهب من صباحه إلى أمه وقبّل رأسها وبكى طويلاً بين يديها . وما كادوا يستجمعون أنفاسهم حتى سمعوا انه جمع أعمامه وأخواله وانه تاب واستغفر أمامهم . وأنه تأكيداً لتوبته أخرج ما تبقى من ثروة أبيه من

ذمته ، وجعل عمه الأكبر وصياً عليها حتى يصير هو صالحاً تماماً لمباشرة مسؤوليته . كاد أهل البلد يعوّدون آذانهم على ذلك ، حتى رأوا لعجبهم سيف الدين يـؤم المسجد لصلاة الجمعة . كان حليق اللحية ، مهذب الشارب ، ونظيف الثياب. ويقول الذين حضروا الصلاة انه لما سمع خطبة الامام ، وكان موضوعها البر بالوالدين ، أجهش طويلا بالبكاء حتى أغمي عليه ، وتجمهر حوله الناس يطيبون خاطره . ولما خرج من المسجد ، ذهب من فوره إلى موسى الأعرج وقال له أنه أخطأ في حقه وطلب صفحه وقال له أنه سيبره كما بره أبوه . وعاشت البلد شهراً أو قرابة شهر وهي تلهث كل يوم من عمل جديد قام به سيف الدين . عزوفه عن الخمر ، ابتعاده عن اصدقاء السوء ، مواظبته على الصلاة ، انصرافه إلى اصلاح ما فسد من تجارة أبيه ، بره بامه ، خطوبته لبنت عمه. وأخيراً عزمه على تأدية الحـج ذلك العام . وكان عبد الحفيظ ، وكان من أكثر الناس إيماناً بمعجزة الحنين ، كما تجلت في سيف الدين ، كلما سمع نبأ جديداً يسرع بـه إلى محجوب ، وكان معروفاً بجفائه لأهل الدين والنساك منهم بوجه خاص معجزة يا زول، ما في اتنين تلاته) . ويصمت محجوب وهو يحس في جوفه بذلك القلق الغامض الذي يساوره إزاء هذه الحالات. (سيف الدين عزم على الحج . تصدق بالله يا زول ؟ تآمن والا ما تآمن ؟ معجزة يا زول دون أدنى شك). كان محجوب يقول لعبد الحفيظ لما بدأت القصة ان سيف الدين شبع من السفاهة،

أو على قوله (وصّل السفاهة حدّها) ، وكان لا بد أن يتغير في يوم من الأيام . لكنه وهو يسمع كل يوم شيئاً جديـــداً مذهلاً لم يعد قادراً حتى على الجدال ، فلاذ بالصمت .

كانت معجزة سيف الدين بداية لأشياء غريبة تواردت على البلد في ذلك العام . ولم يعد ثمة شك في ذهن أحد ، حتى محجوب ، وهم يرون المعجزة تلو المعجزة ، ان مرد ذلك كله ان الحنين قال لاولئك الرجال الثمانية أمام متجر سعيد ذات ليلة : (ربنا يبارك فيكم . ربنا يجعل البركة فيكم) كان الوقت قبيل صلاة العشاء بقليل ، وهو وقت يستجاب فيه الدعاء ، خاصة من أولياء الله الصالحين أمثال الحنين . كانت البلد هادئة ساكنة ، إلا من ريح خفيفة منعشة تلعب بجريد النخيل . إنهم جميعاً ، الرجال الثمانية الذين شهدوا الحادث وبقية الناس في بيوتهم وحقولهم ، يذكرون تلك الليلة بوضوح كأنها كانت ليلة البارحة ، وكان الظلام المخملي الكثيف يربض على اركان البلد ، هدا أضواء مصابيح خافتة تسربت من نوافذ البيوت ، والضوء الساطع من المصباح الكبير في متجر سعيد . كان الوقت وقت تحول الفصول ، من الصيف إلى الخريف . يذكر سعيد صاحب الدكان ان الليلة لم تكن قائظة كسابقتها وانه لم يكن رطب الوجه من العرق وهو يزن سكرا لسيف الدين ، وانه لما (وقعت الوقعة) كما يسميها ، وترك ميزانه وخرج من دكانه ليحول بين الزين وسيف الدين ، يذكر أن نسيما

بارداً هب على وجهه ! ويذكر الناس الذين لم يسعدهم الحظ بحضور الحادث لأنهم كانوا يتهيأون لصلاة العشاء في المسجد ، ان الامام تلا في تلك الليلة ، حين صلى بهم ، جزءاً من سورة مريم. وحاج ابراهيم، عم الزين ووالد نعمة، وهو رجل مشهود له بالصدق ، يذكر تماماً ان الامام قرأ الآية (وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا) من سورة مريم، وهي آية فيها الخير والبركة. ويضيف حمد ود الريس، وهو مشهور في البلد بسعة الخيال والجنوح الى المبالغة، بأن نجماً له ذنب سطع تلك الليلة في الافق الغربي فوق المقابر . لكن أحداً غيره لا يذكر نجما له ذنب سطع في تلك الليلة. على اي حال، لا شك في ان الحنين ، ذلك الرجل الصالح، قال على مسمع من ثمانية رجال، في تلك الليلة المباركة بين الصيف والخريف ، قبيل صلاة العشاء بقليل : (ربنا يبارك فيكم ربنا يجعل البركة فيكم) وكأنما قوى خارقة في السماء قالت بصوت واحد : (آمين) .

بعد ذلك توالت الخوارق معجزة تلو معجزة، بشكل يأخذ باللب. لم ترَ البلد في حياتها عاماً رخيا مباركاً مثل (عام الحنين) كما اخذوا يسمونه . صحيح ان اسعار القطن ارتفعت ارتفاعاً منقطع النظير في ذلك العام، وان الحكومة لاول مرة في التاريخ سمحت لهم بزراعته بعد ان كان ذلك وقفا على مناطق معينة في القطر. (محجوب وحده، وباعتراف منه، ربح اكثر من الف جنيه من قطنه). وصحيح ايضا ان الحكومة لغير ما سبب او لسبب خفي لا يعلمونه، بنت معسكراً كبيراً للجيش في الصحراء على

بعد ميلين من بلدهم . والجنـود يأكلون ويشربون ، فانتعشت البلد من توريد الخضروات واللحوم والفواكه واللبن للجيش. حتى اسعار التمر ارتفعت ارتفاعـاً ليس له نظير في ذلك العـام . وصحيح أيضاً ان الحكومة ، هـذا المخلوق الذي يشبهونه في نوادرهم بالحمار الحرون ، قررت لغير ما سبب ظاهر ايضاً ان تبني في بلدتهم– دون سائر بلدان الجزء الشمالي من القطر، وهم قوم لا حول لهم ولا طول، ولا نفوذ ولاصوت يتحدث باسمهم في محافل الحـكام – قررت الحكومة ان تبني في بلدهم ، دفعة واحدة، مستشفى كبيراً يتسع لخمسمائة مريض، ومدرسة ثانوية ومدرسة للزراعـة ومرة اخرى عادت الفائدة على البلد ، في الايدي العاملة، ومواد البناء وتوريد الغذاء ناهيك بان مرضاهم سيضمنون العلاج، وان أبناءهم سينالون حظهم من التعليم. واذا كانت كل هذه الادلة لا تكفي ، فكيف تفسر بان الحكومة هذا (الحمار الحرون) في اعتقادهم ، قررت ايضاً في العام ذاته ولم يمض على ومضة الحنين أكثر من شهرين ، ان تنظم اراضيهم كلها في مشروع زراعي كبير تشرف عليه الحكومة نفسها بما لهـا من قـوة وسلطان ؟ وجدوا بلدهم فجأة تمج بالمساحين والمهندسين والمفتشين. والحكومة اذا عزمت على أمر فانهـا قادرة على تنفيذه فما هو الا يوم في أثر يوم وشهر يعقبه شهر ، حتى قام على ضفة النيل في بلدهم بناء شامخ من الطوب الاحمر مثل المعبد يلقي ظلاله على النيل وبعد ذلك بقليل ، بين لغط العاملين وقرقعة الحديد إذا بعجلات ذلك المارد تدور ، واذا

بعصاصاته لتشفط من ماء النيـــل ، كما يشفط الرجل الشاي ، في لمح البصر ، كميات لا تقوى عليها عشرات من سواقيهم في عشرات الايام. وإذا بالأرض على اتساعها من ضفة النيل إلى طرف الصحراء بغمرها الماء، بعضها اراض لم تر الماء منذ اقدم السنين، وإذا بها بعد قليل تموج بالحياة. كيف تفسر هذا؟ عبد الحفيظ يعلم السر ، فهو يقول لمحجوب ، وهو يجمع بين عينيه الحقل الواسع الذي هو حقله ، والريح تلعب بالقمح فتثني صفوفـــه فكأنه حوريات رشيقة تجفف شعرها في الهواء : (معجزة يا زول ، ما في أدنى شك) .

•

جلس الطريفي خلسة في مقعده ، بعد أن حدث الناظر بخبر عرس الزين ، جلس خلسة على طرف مؤخرته كأنـــه يتهيأ للهروب في أية لحظة ، فقد كان في سمته وطبعه شيء من سمت الضبع وطبعه . ونظر حوله بعينيه الماكرتين . وهمس في أذن جاره من اليمين : (نجنا الليلة من الجغرافيا ، أشارطك الناظر مـــا يتم الحصة) . وكما تنبأ الطريفي أعلن الناظر في صوت فاتر غير مكترث انه خارج لأمر عاجل : (راجعوا الدرس بتـــاع منطقة زراعة القمح في كندا) . وخرج في خطوات متوترة . وراقبه الطريفي ، وهو يحاول ألا يهرول حتى وصل باب فناء المدرسة . وضحك الطريفي بخبث حين رأى الناظر يمسك بذيل عباءته في يده ، ويهرول مكبا على وجهه في الرمل .

ووصل الناظر إلى دكان شيخ علي في السوق، لاهث النفس، جاف الحلق ، إذ أن المدرسة لم تكن قريبة كل القرب من السوق وبينها وبينه رمل تغرس فيه القدم، والناظر قد جاوز الخمسين . كان دكان شيخ علي في السوق مقره المفضل . سر لما رأى عبد الصمد أيضاً، فقد كانت بينه وبينه صداقة مريرة ، لا يطيب له المجلس أو لعب الطاولة بدونه . وكان بينه وبين المتجر مقدار عشرة أمتار لكنه لم يطق صبراً ، فبدأ يتحدث وهو مقبل عليهما: (شيخ علي ، حاج عبدالصمد، السنة دي سنة العجايب دا كلام ايه دا ؟) واوصلته الجملة عندهم ، فأجلسوه على مقعده المفضل، مقعد وطيء من خشب وحبال عليه مسند وله متكآت على جانبيه .

وكانت القهوة ما تزال ساخنة، تفوح منها رائحة القرفة والحبهان والجنزبيل . أمسك بالفنجان وقربه الى فمه ، لكنه لم يلبث أن رده وقال : (الخبر دا صحيح ؟)

وضحك عبد الصمد وقال الناظر : (كدى اشرب القهوة قبل تبرد . الكلام صحيح) .

وقال الشيخ علي وهو يحرك التبغ المضوغ من الجانب الأيمن الى الجانب الأيسر في فمه (حكاية عرس الزين موكدي ؟ صحيح وأبوه صحيح كان) .

وشفط الناظر شفطة كبيرة من الفنجان ، ثم وضعه على منضدة صغيرة أمامه وأشعل لنفسه سيجارة شد منها نفساً عميقاً

(يا رجل دي سنة غريبة جداً، والا انا غلطان ؟) . لم يكن الناظر يستعمل عبارة (زول) ، أي (شخص) كبقية أهل البلد ، بل كان يقول (رجل) في بداية جمله .

وقال عبد الصمد : (كلامك صحيح جناب الناظر . سنة عجيبة فعلاً . النسوان القنعن من الولادة ولدن . البقر والغنم جابت الاتنين والتلاتة) . وواصل حاج علي تعداد المعجزات التي حدثت ذلك العام : (تمر النخيل كتير لا من غلبنا من الشوالات النشيلة فيها . التلج نزل . دا كلام ! التلج ينزل من السما في بلد صحراء زي دي ؟) وهزّ الناظر رأسه . وهمهم عبدالصمد كلمات في حلقه، فقد كان نزول الثلج في ذلك العام شيئاً حيرهم جميعاً . ولم يستطع الناظر مع طول باعه في علم الجغرافيا ان يجد له تعليلا . وقال الناظر : (لكين المعجزه الكبرى موضوع زواج الزين) — هذه كانت عادته ، يزج الكلمات الفصحى في حديثه .

وقال شيخ علي : (الولد ما يكاد يصدق) كان الناظريمديه هو وعبد الصمد بكلماته الفصحى ، فيحاولان مجاراته .

وقال عبد الصمد : (كلام الحنين ما وقع البحر . قال له باكر تعرس أحسن بت في البلد) .

وقال الناظر : (أي نعم والله . أحسن بنت في البلد أطلاقاً . أي جمال ! أي أدب ! أي حشمة !)

وقال عبد الصمد مستفزاً : (أي فلوس ! انا عارفك كت

خات عينك عليها عشان مال أبوها). واحتد الناظر وهو يرد التهمة عن نفسه : (أنا؟خاف الله يارجل . هذه في عمر بناتي)

وقال شيخ علي يسري عنه : (عمر بناتك ايه يا شيخ ؟ الراجل راجل حتى في أرزل العمر. والبنت من سن أربعتاشر قابلة للزواج من أي راجل ولو كان زي جنابك في الستين) .

(خاف الله يا رجل . انا في الخمسين . اصغر منك ومن عبد الصمد قطع شك) .

وقهقه عبد الصمد قهقهته المشهورة من جوف صدره وقال: (طيب بلاش موضوع العمر،أيه رأيك في حكاية عرس الزين؟)

وقال الناظر : يا رجل دا موضوع مدهش . ازي حاج ابراهيم يقبل ؟ الزين رجل درويش ماله ومال الزواج ؟) .

وقال عبد الصمد باقتناع عميق : (حاسب جنابك من ذكر الزين. دا راجل بركة صديق الراجل الصالح الحنين الله يرحمه).

واضاف شيخ علي ايضاً : (رحمة الله عليه. جاب لنا الخير في البلد) .

وقال عبد الصمد : (وكله عشان خاطر الزين) .

وقال الناظر : (يا رجل ما دخلنا في موضوع الكرامات؟ لكن برضه ...)

وقاطعه شيخ علي : (مهما يكون ، الراجل راجل والمره مره) .

واضاف عبد الصمد : (والبت بت عمه على كل حال) .

صمت الناظر ، فانه لم يجد ما به على كلامها – من الناحية الشكلية على الاقل : فكون بنت العم لابن العم حجة ليس بعدها حجة في عرف أهل البلد . انه تقليد قديم عندهم ، في قدم غريزة الحياة نفسها، غريزة للبقاء وحفظ النوع. لكنه في قرارة نفسه كان مثل آمنة ، يحس بلطمة شخصية موجهة له. وأحس برهة بارتياح : ان علي وعبد الصمد لا يعلمان بانه فاتح حاج ابراهيم في أمر نعمة لو علما اذاً لما استطاع ان ينجو من لسانيهما السليطين. وسأل نفسه وهو يشرب الفنجان الخامس من قهوة شيخ علي، لماذا طلب يدها؟ فتاة صغيرة في سن بناته انه لا يدري تماماً . لكنه رآها ذات يوم خارجة من الدار ، ترتدي ثوباً أبيض . صادفها وجهاً لوجه . راعه جمالها . سلم عليها بصوت مرتعش فردت سلامه بصوت هادىء رزين. قال لها : (انت نعمة بنت حاج ابراهيم ؟) فقالت دون تردد او وجل : (نعم) . وبسرعة بحث في ذهنه عن سؤال آخر يستبطئها به قبل أن تذهب فلم يجد خيراً: (أخوك احمد كيف حاله ؟) – كان هذا أخاها الأصغر الذي كان من تلاميذه . فقالت له ووجهها الجريء قبالة وجهه :(طيب) ثم ذهبت... وعاش الناظر بعد ذلك ليالي وصورتها لا تفارق ذهنه . لعلها أيقظت في قلبه احساساً دفيناً ، لم يذكره منذ عشرين عاماً . واخيراً لم يقوَ على الصبر ، فانتهز وعكة خفيفة ألمت بأبيها فذهب اليه بحجة عيادته . وجده وحده لحسن حظه . وبعد حديث سطحي عن أسعار القمح وحال المدرسة، دخل الناظر

في الموضوع . وبسرعة طلب يد نعمة من أبيها . لم يفهم حاج ابراهيم شيئاً أول ألامر ، أو لعله تغابى ، فاستوضح الناظر في جملة أوجملتين حزّنا في نفسه .قال له أولاً: (داير نعمة لي منو؟) فقال الناظر بشيء من العجرفة : (لي منو؟ أنا طبعاً) . وكأنما حاج ابراهيم غرس خنجراً ثم ضغط على مقبضه ليثبته أكثر في قلبه حين قال له : (ليك أنت ؟) خلاصة القول ان زيارته كانت خطأ فادحاً. وحاول حاج ابراهيم أن يخفف عنه الوقع فألقى خطبة طويلةعن الشرف الذي أسبغه عليه الناظر بطلبه وانه خير صهر له وو ... لكن، وهذا هو المهم، لكن الفرق بين سنه وسن البنت يجعله لا يستطيع أن يقبل ، فهو بهذا لا يرضي ضميره. ثم ان أخوانها سيعترضون. وأخيراً حاول الناظر ملافاة الضرر ، فاستحلف حاج ابراهيم الا يذكر شيئاً مما دار بينهما لمخلوق ، وان يعتبر الأمر كأن لم يكن . (نحفر حفرة وندفنه في محله دا) .

وكان حاج ابراهيم عند حسن ظنه. لكن الناظر في قرارة نفسه ، على الرغم من اقتناعه بخطئه، لم يستطع ان يتخلص من الطعم المر في حلقه .ولما سمع بانها ستزف للزين دون سائر الناس احس الخنجر ينغرس اكثر في قلبه.وذعر الناظر قليلاً حين سمع عبد الصمد يقول له : (جنابك ما تزعل ابداً. اذا كنت عاوز تعرّس ، البلد مليانه نسوان عزبات ، المطلقة والراجلها مات اجمل نسوان عليّ باليمين) .

وهنا ثار الناظر فعلاً . انصب حنقه الداخلي كله على

عبد الصمد : (يا رجل انت مجنون؟ انت ما تعرف تفرق بين الجد والهزار ؟ اما انت راجل اونطه صحيح !) .

وقهقه عبد الصمد بلذة عميقة، فقد نجح في استثارة الناظر انه يتصيد هذه الفرص. لعل الذي آلمه في الموضوع ذكر النساء الثيبات ! وقال شيخ علي يزيد النار اشتمالا : (يعني جناب الناظر لمايحب يتزوج فوق أم أولاده، يتزوج نسوان سكندهاند؟ اما فعلاً يا حاج عبد الصمد انت راجل اونطه صحيح) .

وتمسك عبد الصمد بكلمة (سكندهاند) يغيظ بهاعلي هذه المرة : (قت شنو آشيخ علي ؟ سَكَن دهان؟ والله عجايب! عشنا وشفنا علي ود الشايب يتكلم الافرنجي) .

وضحك الناظر بافراط، محاولاً قدر المستطاع تحويل الهجوم عن شخصه الى شخص شيخ علي . لكن شيخ علي كان عليما بنزوات عبدالصمد وحركات الناظر، فتجاهل هجوم عبدالصمد وعاد بالحديث إلى موضوع زواج الزين : (المهم زي قلنا . العرس هو قاسي . والراجل راجل وأن كان بي رياله ، والمره مره وأن كانت شجرة الدر) .

تعجب الناظر في سره كيف عرف شيخ علي اسم شجرة الدر. ووقع الاسم موقعاً حسناً على أذن عبد الصمد وكان جاهلاً به لكنه تحرج من السؤال مخافة ان يفضح جهله. ومضى شيخ علي يعدد لهما اسماء الرجال الذين لم يكن لهم شأن يذكر ومع ذلك تزوجوا نساء بارعات الذكاء مفرطات الحسن . استحوذ على

إهتمام خصميه مدة غير قليلة من الزمن . وغمرته السعادة وهو يرى الدهشة والاعجاب يبدوان على وجهيهما . ذكـّرهما بقصة كثير الذي أحبته عزة على قصره وبشاعة هيئته ، وقصـــة الأعرابية التي سألوها كيف تزوجت رجلاً جلفاً قميئاً فقالت لهم (وأالله لو ... الخ) . وكاد الناظر وعبد الصمد يستلقيان على ظهريهما من الضحك حين سمعا ما قالته الأعرابية. ثم أشار الى قبيلة الابراهيمات الذين انحدروا جميعاً من صلب رجل درويش يدعى ابراهيم أبو جبّة ، وكيف أنه...لكن عبد الصمد ضاق ذرعاً بطلاوة لسان شيخ علي ، فقاطعه بشيء من الحدة قائلاً : (انت رايــح بعيد ليه لي كثير عزة وقبيلة الابراهيمات ؟ عند سعيد البـــوم .. ماك طاري حكاية عرسه ؟) ابتسم الناظر ، فقد كانت بينه وبين سعيد البوم مودة خاصة ، أم لعله كان يستغل سعيد في جلب الحطب والماء لبيته ؟ وكان سعيد يبيع حطب الوقود ويخدم في البيوت، ويدخر ماله عند الناظر. ولما أراد الزواج جاء للناظر واستشاره، وتباهى بعد ذلك أن الناظر في جلالة قدره شهد عقد زواجه. كل أحد في البلد يعرف قصة زواج سعيد ، وأنه عاش مع زوجته قريباً من الحلول لا يمسها وكادت المرأة تيأس وتطلقه. وكان سعيد يقول أذا سألوه عن سبب أبطائه : (التزرن بالمهلة). لكنه فيما بعد على أي حال أولدها أولاداً وبنات .

وفجأة لمح الناظر في خياله وجه نعمة ، ومرة أخرى بالخنجر يتحرك في قلبه ، فقال وكأنه لم يسمع كل القصص التي قصها

عليه شيخ علي وحاج عبد الصمد : (لكين نتزوج الزين ؟ دا اسمه كلام يا رجل ؟ والله عجايب !) .

تأثر أمام المسجد بالحوادث العجيبة التي شهدتها القرية ذلك العام . كان رجلاً ملحاحاً متزمتاً كثير الكلام، في رأي أهل البلد. كـانوا في دخيلتهم يحتقرونه ، لأنه كان الوحيد بينهم الذي لا يعمل عملاً واضحاً — في زعمهم . لم يكن له حقـــل يزرعه ولا تجارة يهتم بها،ولكنه كان يعيش من تعليم الصبيان، له في كل بيت ضريبة مفروضة ، يدفعها الناس عن غير طيب خـاطر . وكان يرتبط في أذهانهم بامور يحلو لهم أحياناً ان ينسوها : الموت ، والآخرة ، والصلاة . فعلق على شخصه في أذهانهم شيء قديم كئيب مثل نسيج العنكبوت.اذا ذكر اسمه خطر على بالهم تلقائياً موت عزيز لديهم ، أو تـذكروا صلاة الفجر في عز الشتاء، ومـا يرتبط بذلك من وضوء بالماء البارد يشقق الرجلين ، وخروج من الفراش الدفيء الى لفح الصقيع ، وسير في غبش الفجر الى المسجد . هذا اذا كان الواحد منهم يذهب بالفعل الى الصلاة . اما اذا كان مثل محجوب ، وعبد الحفيظ ، واحمد اسماعيل ، والطاهر الرواسي ، وحمـد ود الريس ، من النفر « العصاة » الذين لا يصلون ، فانه يحس كل صباح باحساس غامض يثير القلق، من نوع الاحساس الذي يحسه الواحد منهم اذا نظر خلسة الى امرأة جاره . ويقول لك محجوب اذا سألته عن امام المسجد انه « راجل صعب . لا يأخـــذ ولا يدي » . معنى ذلك انه لم يكن يسايرهم او

يخوض معهم في احاديثهم – لم يكن يعنيه ، كما يعنيهم ، اوان زراعة القمح وسبل ريه وسماده وقطعه او حصاده . لم يكن يهمه هل موسم الذرة في حقل عبدالحفيظ نجح ام فسد، وهل البطيخ في حقل ود الريس كبر ام صغر ؟ كم سعر اردب الفول في السوق ؟ هل هبط سعر البصل ؟ لمـــاذا تأخر لقاح النخل ؟ كانت تلك امور ينفر منها بطبعه ويحتقرها بسبب جهله بها . ومن ناحية أخرى ، كان هو يهتم بأمور لا يأبه لها إلا القليلون في البلد . كان يتتبع الاخبار من الاذاعةوالصحف ويحب ان يناقش هل ستقوم الحرب ام لا ؟ هل الروس أقوى أم الأمريكان ؟ ماذا قال نهرو وماذا قال تيتو ؟ وكان أهل البلد مشغولين بجزئيات الحياة ، لا تعنيهم عمومياتها . وهكذا نشأت الهوة بينه وبينهم . لكنهم ان لم يحبوه ، فقد كانوا يعترفون بحاجتهم اليه . يعترفون مثلاً بعلمه ، فقد قضى عشر سنوات في الأزهر . يقول الواحد منهم : « الامام ما عنده شغلة » . ثم يضيف : « لكن الحق لله لسانه فصيح كلام » . كان يلهب ظهورهم في خطبه ، وكأنه ينتقم لنفسه منهم ، بكلام متدفق فصيح عن الحساب والعقاب ، والجنة والنار ، ومعصية الله والتوبة اليه ، كلام يــنزل في حلوقهم كالسم . يخرج الرجل من المسجد بعد صلاة الجمعة زائغ العينين ويحس وهلة كأن سير الحياة قد توقف . ينظر الى حقله بما فيه من نخل وزرع وشجر ، فلا يحس بأي غبطة في نفسه . يحس أنها جميعاً عرض زائل ، وان الحياة التي يحياها بما فيها من فرح

وحزن ، ما هي إلا جسر إلى عالم آخر . ويقف برهة يسأل نفسه ماذا أعد لذلك العالم الآخر ؟ لكن جزئيات الحياة ما تلبث ان تشغل فكره ؛ وسريعاً أسرع مما كان يتوقع، تغيب صورة العالم الآخر البعيد ، وتأخذ الأشياء أوضاعها الطبيعية.

وينظر إلى حقله فيحس مرة أخرى بذلك الفرح القديم الذي يعطيه مبررات وجوده . ومع ذلك فأكثرهم يعودون اليه في كل مرة ، ليجربوا نفس الصراع الغامض . يعودون اليه لأن صوته قوي واضح وهو يخطب ، عذب رخيم وهو يرتل القرآن ، مهيب حين يصلي على الأموات ، حازم عليم ببواطن الأمور وهو يقوم بعقود الزواج . وكانت في عينيه نظرة احتقار وترفع ، يحس الواحد منهم وقعها حين يفقد ثقته بنفسه. كان مثل الضريح الكبير وسط المقبرة .

وكانت البلد منقسمة الى معسكرات واضحة المعالم ازاء الإمام (لم يكونوا ابداً ينادونه باسمه ، فكأنه في أذهانهم ليس شخصاً بل مؤسسة) . معسكر أغلبه من الرجال الكبار العقلاء ، يتزعمه حاج ابراهيم ، ابو نعمة ، يعامل الإمام معاملة ود يشوبه تحفظ . هؤلاء كانوا يحضرون كل الصلوات في المسجد، ويبدو على وجوههم على الأقل أنهم يفهمون ما يقول، يدعونه إلى الغداء كل يوم جمعة بعد الصلاة ، كل واحد منهم يدعوه يوماً ، بالتناوب . كانوا يدفعون اليه بصدقة الفطر في عيد رمضان ، ويعطونه جلود الذبائح في عيد الأضحى إذا تزوج أحد أبنائهم أو بناتهم ، أعطوه حقه نقداً

ومعه رداء أو ثوب . شذ عن هذا الفريق رجل في السبعين اسمه ابراهيم ود طه ، لا يصلي ولا يصوم ولا يزكي ولا يعترف بوجود الإمام . والفريق الثاني ، واغلبه من الشبان دون العشرين ، يعادي امام المسجد عداءاً سافراً . بعضهم تلاميذ في المدارس ، وبعضهم سافر وعاد ، وبعضهم يحس على اي حال بفيض الحياة حاراً قوياً في دمه ، فلا يحفل برجل صناعته تذكير الناس بالموت . هذا كان فريق المغامرين — منهم من يشرب الخمر سراً ويسلم خفية بالواحة في طرف الصحراء — ، وفريق المتعلمين الذين قرأوا أو سمعوا بالمادية الجدلية ، وفريق المتمردين ، وفريق الكسالى الذين يصعب عليهم الوضوء في الفجر في عز الشتاء . ومن عجب ان زعيم هذه الفئة كان ابراهيم ود طه ، الرجل الذي جاوز السبعين ، لكنه كان يقرض الشعر . والفريق الثالث ، وقد كان اكثر المسكرات وزناً ، فريق محجوب وعبد الحفيظ والطاهر الرواسي وعبد الصمد وحمد ودالريس واحمد أسماعيل وسعيد . كانوا متقاربي الاعمار ، بين الخامسة والثلاثين والخامسة والاربعين ، إلا احمد أسماعيل فقد كان في العشرين لكنه بحكم مسؤوليته وطريقة تفكيره كان واحداً منهم . هؤلاء كانوا الرجال أصحاب النفوذ الفعلي في البلد . كان لكل واحد منهم حقل يزرعه ، في الغالب اكبر من حقول بقية الناس ، وتجارة يخوض فيها . كان لكل واحد منهم زوجة واولاد . كانوا الرجال الذين تلقاهم في كل امر جليل

يحل بالبلد . كل عرس هم القائمون عليه ، كل مــأتم هم الذين يرتبونه وينظمونه . يغسلون الميت فيما بينهم ، ويتناوبون حمله إلى المقبرة . هم الذين يحفرون التربة ، ويجلبون الماء ، وينزلون الميت فــي قبره ، ويهيلون عليه التراب ، ثم تجدهم بعد ذلك في (الفراش) يستقبلون المعزين ، ويديرون عليهم فنــاجين القهوة المرة . إذا فاض النيل أو انهمر سيل ، فهم الذين يحفرون المجاري ، ويقيمون التروس ، ويطوفون على الحــي ليلا وفي ايديهم المصابيح ، يتفقدون احوال الناس ، ويحصرون التلف الذي أحــدثه الفيضان أو السيل . اذا قيل أن امرأة أو بنتاً نظرت نظرة فاجرة إلى أحد ، فهم الذين يكلمونها وأحيانــاً يضربونها . لا يمنيهم بنت من تكون . إذا علموا أن غريباً حام حول الحي حول المغيب فهم الذين يوقفونه عند حده . اذا جاء العمدة لجمع العوائد فهم الذين يتصدون له ، ويقولون هذا كثير على فلان ، وهذا معقول وهذا غير معقول . إذا ألم بالبلد أحد رسل الحكومة (وهم لا يأتون الا لماما) فهم الذين يستقبلونه ويضيفونه ، ويذبحون له الشاة او الخروف ، وفي الصباح يناقشونه الحساب ، قبل ان يقابل احــداً من أهل البلد . والآن وقد قامت في البلد مدارس ، ومستشفى ، ومشروع زراعي ، فهم المتعهدون ، وهم المشرفون ، وهم اللجنة المسؤولة عن كل شيء . كان الإمام لا يحبهم ، ولكنه كان يعــلم انه سجين في قبضتهم ، إذ أنهم هم الذين كانوا يدفعون له مرتبه آخر كل شهر ، يجمعونه من اهل الحي . كل موظف حكومة

يحل بالبلد ، وكل من له حاجة يريد أن يقضيها ، سرعان ما يكتشف هذا الطريق ، فلا تنجح له مهمة أو يتم له عمل إلا اذا تفاهم معهم . لكنهم كانوا ، ككل صاحب سلطان ونفوذ لا يظهرون نزعاتهم الشخصية .(إلا في مجالسهم الخاصة امام متجر سعيد) . الإمام مثلاً ، كانوا يعتبرونه شراً لا بد منه فيحبسون ألسنتهم عن ذمه ما استطاعوا،ويقومون « بالواجب والمجاملة » كما يقول محجوب . لم يكونوا يصلون ، ولكن واحداً منهم على الأقل كان يحضر الصلاة مرة في الشهر ، إما الظهر أو العشاء في الغالب ، فالفجر لا طاقــة لهم به — ويكون غرض الزيارة في الواقع شيئاً غير الاستماع لعظة الإمام حينئذ يعطون الإمام مرتبه ، ويتفقدون بناء المسجد اذا كان يحتاج إلى إصلاح .

وكان الزين فريقاًقائماً بذاته . كان يقضي أعظم أوقاتهمع شلة محجوب،بل انه كان فيالواقع إحدى المسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتقهم . كانوا يحرصون على إبعاده عن المشاكل ، وإذا وقع في ورطة أخرجوه منها. كانوا يعلمون عنه أكثر مما تعلم أمه ، يشملونه بعنايتهم وترعاه عيونهم من بعيد . وكانوا يحبونه ويحبهم . لكن الزين في موضوع الإمام كان معسكراً قائماً بذاته ، يعامله بفظاظة، وإذا قابله قادماً من بعيد ترك له الطريق.ولعل الإمام كان الشخص الوحيد الذي يكرههالزين، كان مجرد وجوده في مجلس يكفي لإثارتــه ، فيسب ويصرخ ويتعكر مزاجه ويتحمل الإمام في وقار هيجان الزين،ويقول

أحياناً ان الناس أفسدوه بمعاملتهم له كأنه شخص شاذ ، وان كون الزين ولي صالح حديث خرافة ،وأنه لو ربي تربية حسنة لنشأ عادياً كبقية الناس . لكن من يدري ، لعله هو الآخر أحس بقلق في صدره حين حدجه الزين بإحدى نظراته ، فكل أحد يعلم أن الزين أثير عند الحنين ، والحنين ولي صالح وهو لا يصادق أحداً إلا إذا أحس فيه قبساً من نور .

إلا أن الأمور اختلطت أختلاطاً غير يسير في (عام الحنين) فان (خيانة) سيف الدين ، أو (توبته) (حسب المعسكر الذي انت فيه) ، اضعف فريقاً وقوى فريقاً . كان سيف الدين بطل الواحة وفارسها وزعيمها . فلما تحول الى معسكر الاتقياء العقلاء سرى الرعب في قلوب أصدقائه القدامى . كان من ناحية وارثا ، فكان هو الذي يدفع ثمن الشراب في أغلب الاحيان . وكان ستاراً مفيداً يختفون وراءه في مجونهم ، اذ كانت البلد مشغولة بـه عنهم . وكان بعضهم يرى فيه رمزاً حقيقياً لروح الانطلاق والتمرد. وفجأة انهدت الارض تحت ارجلهم . ثم ان سيف الدين استغل معرفته بخباياهم ، فاصبح اخطر خصم لهم . واشتد ساعد الإمام بسيف الدين . كانت الواحة دائماً شغله الشاغل ، وتقوم في نظره رمزا للفساد والشر . ونادراً ما كانت تخلو خطبة من خطبه من ذكرها . والآن وقد عاد سيف الدين الى جادة الصواب ، فقد زادت خطب الإمام قسوة ، وزادت

حملته قوة . واصبح سيف الدين المثل الذي يضربه كل مـرة على ان الخـير ينتصر في النهاية . لم يحفل الإمـام بأن الحنين ، وهو يمثل الجانب الخفي في عالم الروحانيات (وهو جانب لا يعترف به الإمام) كان هو السبب المباشر في توبة سيف الدين.
معسكر (الوسط) ، جماعة محجوب ، لم يتأثر كثيراً ، فهم يعتبرون الواحة ، كالإمام سواء بسواء ، شراً لا بد منه ، ولم يكونوا يأبهـون كثيراً إلى أن بعض شبان البلد يسكرون ، مـا دام ذلك لا يؤثر على سير الحياة الطبيعي . لا يتدخلون الا اذا سمعوا ان شاباً سكراناً تهجم عـلى انثى او رجل من اهل الحي . حينئذ يلجأون الى اساليبهم الخاصة ، التي تختلف عن اساليب الإمـام . وفي تأييدهم لبقية الناس ، في محاولة تهديم الواحة ، لم يكونوا ينظرون الى عملهم كما ينظرله الإمام محـاولة لتغليب الخير على الشر . لا بل لان زوال الواحـة سيغنيهم عن متاعب عملية ، لا حاجة لهم فيها .

المهم ان الإمام فرح بسيف الدين فرحـاً عظيما . اصبح يذكره في خطبه . يتكلم وكأنه يتحدث اليه شخصياً . تراه خارجاً داخلاً معه . وقال احمد اسماعيل لمحجوب مرة وهو يرى سيف الدين والإمام يمشيان معاً ذراعاً في ذراع : (ود البدوي من الخدم للامام) .

وكان للامـام رأي فـي امر زواج الزين من نعمـة بنت الحاج ابراهيم .

●

دخل محجوب دكان سعيد ، ووضع قطعة نقد على الطاولة فأخذها سعيد في صمت وانزل من الرف علبة سجاير بحاري ، ووضعها في يد محجوب ومعها الباقي قطع معدنية صغيرة. جعل محجوب سيجارة ، شد منها نفسين او ثلاثة ، ثم رفع وجهه إلى السماء وتمعن فيها دون احساس ، كأنها قطعة ارض رملية لا تصلح للزراعة . وقال بفتور : « الثريا طلعت . وقت زراعة المَريق » . وظل سعيد مشغولاً بتفريغ علب من صناديق ووضعها على الرف . بعد ذلك تحرك محجوب وجلس قبالة الدكان . ليس على الكنبة ولكن على الرمل مكانهم المفضل ، حيث ضوء المصباح يمسهم بطرف لسانه، فاذا ماجوا في ضحكهم احياناً تراقص الضوء والظل على رؤوسهم ، فكأنهم غرقى في بحر يغطسون ويطفون . بعد ذلك جاء احمد اسماعيل يجرجر رجليه كعادته ، واستلقى بظهره على الرمل قريباً من محجوب دون ان يقول شيئاً . ثم جاء عبد الحفيظ وحمد ود الريس ، كانا يضحكان . لم يسلما على صديقيهما ، وهذان لم يسألاهما عن سر ضحكهما ذلك شيء آخر في تلك الفئة . كانوا يعلمون ، بطريقة ما ، ما يدور في ذهن كل منهم دون سؤال. وقال محجوب بعد ان بصق على الارض : « انتو لسع في حكايات سعيد البوم » ؟ كان احمد اسماعيل قد انقلب على بطنه فقال وكأنه يحدث الرمل : « لازم المره عاوزه تطلقه » . وقال عبد الحفيظ في مرح ، ان زوجة سعيد البوم

جاءته في الحقل وقالت له وهي تبكي انها تريد ان تطلق من سعيد . ولما سألها عن السبب قالت له ان سعيد كلمها كلاماً قاسياً في الليلة الماضية وقال لها انها امرأة « جيفة » — هكذا لانها لا تتعطر ولا تتزين كبقية النساء . ولما قارعته الكلام ، صفعها على وجهها وقال لها : « امشي اخدي دروس من بنات الناظر » . وكان الطاهر الرواسي قد وصل اثناء ذلك وجلس في هدوء في المكان الذي لا يصله النور من بقعة الرمل. ضحك وقال : « المسنوح يمكن قايل للناظر بيمرس له واحده من بناته » . وقال عبد الحفيظ انه طيب خاطر المرأة وردها الى بيتها وقال لها انه سيجيئهم ليكلم سعيد . وفعلاً غدا اليهما وقت الظهيرة . لكنه تريث عند باب الدار ، فقد وجده مغلقاً ، وسمع داخله ضحكات سعيد وزوجته ، ضحكات هنيئة منشرحة ، وسمع سعيد يقول لزوجته ، وكأنه يعض اذنها : « ابكي يا خيتي ابكي » . وضحكوا كلهم : كل واحد منهم على طريقته : احمد اسماعيل يكركر بضحك يزمجر بين بطنه وصدره . ومحجوب يضحك في فمه ويحدث طقطقة بلسانه . وعبد الحفيظ يضحك كالطفل . وحمد ود الريس يضحك بجسمه كله ، وخاصة رجليه . والطاهر الرواسي يمسك رأسه بجماع يديه حين يضحك . وكان سعيد في دكانه ، فضحك ضحكته الخشنة التي تشبه صوت المنشار في الخشب . وقال محجوب : « المسنوح كيفن قدر في الحردا ؟ »

واستمر حديثهم هكذا . حديث منقطع تتخلله فترات صمت . لم يكن صمتهم ثغرات في الحديث ، بقدر ما كان امتداداً له . يقول احدهم جملة مبتورة : « ... ما عنده فهم» ويقول الآخر : « ... القاضي يعمل قاضي » ، ويضيف الآخر : « ... زمان قلنالكم طلعوه من اللجنة قلتو لا » ، ويقول الآخر : « ... باذن الله دي آخر سنة ليه » . ولا يدري الغريب عنهم عمن يتكلمون . لكن ذلك شأنهم ، يتحدثون وكأنهم يفكرون جهاراً ، وكأن عقولهم تتحرك في تناسق ، وكأنهم بشكل أو بآخر عقل كبير واحد . يمضي الحديث رتيباً مثل هذا ، ثم يذكر احدهم عرضاً جملة او حادثة تثير خيالهم جميعاً في وقت واحد ، وفجأة تسري فيهم الحياة فكأنهم كومة قش اشعلت فيها النار . يستوي جالساً الذي كان راقداً على ظهره . ويضم الآخر ذراعيه على ركبتيه ويقترب الذي كان جالساً بعيداً . ويخرج سعيد من دكانه . يقتربون بعضهم من بعض ، حينئذ، كأنهم يتحركون نحو تلك النقطة ، ذلك الشيء في الوسط الذي يسعون اليه جميعاً . يميل محجوب الى الامام ، وتنغرس يدا احمد اسماعيل في الرمل ، ويضغط ود الريس بيديه على رقبته . هذه هي اللحظة التي تلحمهم فيها ، بين النور والظلام ، وكأنهم غرقى في بحر . واحياناً يحتدون في كلامهم ، يتشاجرون ، تخرج الكلمات من افواههم كأنها قطع من الصخر ، تتقاطع جملهم ، يتحدثون في

آن واحـد ، ترتفع اصواتهم . في مثل هذه الحـالات يظن الغريب عنهم انهم غلاظ الطبع . لهـذا تختلف الآراء فيهم ، حسب اللحظات التي يراهم فيهـا الناس . بعض اهـل البلد يعتبرونهم صامتين قليلي الكلام ، لأنهم يصادفونهم في احدى تلك الحالات، حين يقف حديثهم عند « آ » و « او » و « لا » و « نعم » . وبعض الناس يقولون عنهـم انهم « ضحّاكون » كالاطفال،لأنهم صادف ان وجدوهم في احدى حالات غرقهم، ويحلف موسى البصير انه زامل محجوب الى السوق – مسافة ساعتين بالحمار – فلم يقل له كلمة واحدة. كان الناس يبتعدون عن مجالسهم ، لانهم حينئذ يحسون احساس الغريب ، وكانوا هم يفضلون الا يكون بينهم غريب. كانوا كأنهم توائم ، ولكن اذا عاشرتهم مدة تدرك الاختلافات التي تجعل كل منهم فرد قائماً بذاته . احمد اسماعيل ، بحكم سنه، كان أميلهم الى المرح ولم يكن يبالي اذا انتشى بالخمر في المناسبات . وكان احسنهم رقصـاً في الأعراس . وعبد الحفيظ كان اكثرهم مجاملة للناس الذين لا يفكرون مثل تفكير « العصابة » ، كما كانوا يسمون انفسهم ويسميهم الناس . كان هو الذي ينبههم الى ان ابن فلان تزوج ، وفلانـاً مـات ابوه ، وفلاناً عاد من السفر (من سكان الاحياء البعيدة عن حيهم) فيذهبون جماعة جماعة في الغالب للتهنئة او للتعزية . وكان احيانـاً يذهب للمسجد للصلاة ، ويحاول الا يقول لهم. وكان الطّاهر الرواسي اقربهم الىالغضب

وامرعهم الى امساك عصاه ، او سحب سكينه في اوقـــات « الزنقة ». وكان سعيد احسنهم في محاججة الحكام، يسمونه « القانون » . وكان حمد ود الريس ذا اذن حساسة لاخبار الفضائح ، يجمعها من اطراف البلد ، من الاحيـــاء البعيدة ، ويلقيها عليهم في اوقات معينة في مجالسهم . وكانوا يندبونه في الغالب لمعالجة مشاكل النسوان في البلد . وكان محجوب احمقهم وانضجهم . كان مثل الصخرة المدفونة تحت الرمل ، تصطدم بها اذا عمقت في حفرك . وكانت صلابته تظهر في الازمـات الحقيقية : حينئذ يصير « ريس المركب » ، يأمر وهم ينفذون جاءهم مرة مفتش جديد للمركز ، اجتمعوا به مرة ومرتين . تحدثوا اليه ، وتناقشوا معه . ثم قرروا فيما بينهم انه غـــير صالح . وبعد شهر تأزمت الامور ، فقد قـال المفتش لبعض الناس ان « عصابة محجوب » تسيطر على كل شيء في البلد : فهم اعضاء في لجنة المستشفى ، ولجان المدارس ، وهم وحدهم لجنة المشروع الزراعي وروصل اليهم ان المفتش قـــال : « ما فيش في البلد رجال غير الجماعه ديل ؟ » لما تشاوروا في الامر بينهم ، كانوا اميل الى الرضوخ للامر الواقع ، وبعضهم عرض ان يستقيل من عضوية اللجان التي هـــو فيها . ولكن محجوب قال : « ما في انسان يتحرك من مكانه » ثم لم يلبث المفتش غـير شهر آخر حتى نقـل . كيف تم ذلك ؟ لمحجوب اساليبه الخاصة ، في الحالات القصوى .

كانوا يضحكون ، حين سمعوا الزين يشتم باعلى صوتـــه : « الراجل الباطل . الحمار الدكر » . ووصل عنــدهم ، فوقف برهة فوقهم ، ساقاه منفرجتان ، ويداه على خصره . كان نصفه الاعلى كله في الضوء ، ولاحظوا ان عينيه محمرتان اكثر من احمرارهما الطبيعي. قال الطاهر الرواسي : « واقف فوقنا مالك داير تشرب دمنا ؟ يا تقعد يا تفور » . وقال احمـــد اسماعيل : « لازم الزين سكران الليلة ».وقال عبد الحفيظ : «اقعد خد لك نفس»وقال حمد ود الريس :« قالوا الليلة كت في حوش العمدة . شن مشيت تكوس ؟ البت وعرّسوها ، تاني شن داير ؟ » وامسك الزين السيجارة من عبد الحفيظ وجلس صامتاً واخذ ينفخ فيها بغيظ . ضحك الطاهر الرواسي وقال له : « مو كدى يا مرمّد. عامل نفسك َفنجري وِمتْمَلهم، السيجارة ماك عارف تشربها . جرهـا لي ورا . اي كدى ، زي كأنك تمص فيها ». ونجح الزين في جذب الدخان الى فمه فنفث منه غمامــة كبيرة ، وقفت ساكنة برهة ، ثم ذابت في خيوط دقيقــة ، بعضها نحا نحو الضوء ، والآخر اختلط مــع سواد الليــل في الجانب المظلم . وجــاء بدوي من عرب القوز يقصد الدكان فقام اليه سعيد . وسمعوه يقول لسعيد : « خمسة ارطال سكر ونص رطل شاي » . وقال احمـــد اسماعيل : « العرب ديل كل قروشن مودّرنهـــا في الســكر والشاي » . وهنـــا صاح الزين بسعيد : « خــلي المره تعمل شاي مضبوط

باللبن . يكون مضبوط » . فقال له سعيد : « حاضر يا زعيم نعمل لك شاي مضبوط باللبن » . ثم نادى من شباك يصل بين المتجر والدار خلفه : « اعملوا قوام شاي تقيل باللبن للزعيم » وانتعش الزين ، فقال بمرح : « انا ارجل راجل في البلد دي ولاّ لا ؟ » فقال له الطاهر : « طبعاً » . « طيب ليه الحمار الدكر يروح لي عمي ويقول له الزين مش راجل بتاع عرس؟» وقال محجوب : « الداهي بقى افرنجي. وين عرفت الفصاحة دي ؟ مش راجل بتاع عرس ؟ » وقال ود الريس : « الامام غاير منك . داير المره لي رقبته » .

فقـال الزين : « بت عمـــي ولاّ لا ؟ يروح يشوف له بت عم » .

قال له محجوب بحزم : « العقد يوم الخميس الجاي : بعد دا مـا فيش طرطشة ورقيص وكـــلام فـــاضي . سمعت ولاّ لا ؟ »

سكت الزين :

وسأله الطاهر الرواسي : « منو القال لك ؟ » فقال الزين « هي نفسها كلمتني » .

كان محجوب ممدداً رجليه على الرمل ، متكئاً على ذراعيه فلما سمع هذا ، تشنج جسمه كأن احـــداً قرصه ، واستوى جالساً : « هي بنفسها كلمتك ؟ »

« اي" . جاتني الصباح بدري في بيتنا . وقالت لي قدام امي : يوم الخميس بمقدوا لك عليّ . انا وانت نبقى راجل ومره ، نسكن سوا ، ونعيش سوا » .

وارتفع صوت محجوب من فرط حماسه ، وقال في اعجاب ليس له حد : « عليّ باليمين مره تملا العين . طلاق ، بت ما ليها اخت » . وجاء سعيد يحمل الشاي ، فقال له محجوب : « سمعت الكلام دا ؟ البت مشت كلمته بنفسها » . فقال سعيد : « بت عنيدة رأسها قوي ربنا يستر » . صمت الباقون برهة ، ولكن محجوب ضرب فخذه براحة يده عدة مرات ، وقال وهو يتلفت يميناً وشمالاً ، بحماسة وانفعال : « يمين الزين ماش يعرس له بتاً تمشّيه فوق العجين ما يلخبطه » .

وشرب الزين الشاي ، في صخب كعادته ، يمص الشاي مصاً له زئير . وفجأة وضع الكوب من يده ثم ضحك . وقال في سرور : « الحنين قال لي قدامكم كلكم : باكر تعرس احسن بت في البلد » . ثم انفجر بزغرودة عظيمة ، كزغاريد النساء في العرس ، وصاح بأعلى صوته : « أرروك يا ناس الفريق ، يا اهل البلد ، الزين مكتول . كتلته نعمة بنت الحاج ابراهيم » . وصمت بعد ذلك فلم يفه بكلمة . ولم يلبثوا ان سمعوا صوت سيف الدين (انتصار آخر للامام) يؤذن لصلاة العشاء ، فسرت فيهم حركة خفيفة جداً . تنحنح محجوب ثم وحرك احمد اسماعيل اصابع قدمه بطريقة لا

شمورية ، وتنهد عبد الحفيظ ، ومال الطاهر الرواسي إلى الوراء قليلاً ، قال سعيد : « أشهد ألا إله إلا الله » وراء المؤذن بصوت خافت ، ونفخ حمد ود الريس في رمــل لا وجود له من يده ولما انتهى الآذان وسمعوا صوت الإمام ينادي في صحن المسجد : « الصلاة ، الصلاة » ، قــام كل واحد منهم إلى بيته ليحضر عشاءه . وكما يصلي الناس جماعة في المسجد ، سيتمشون هم مجتمعين ، جالسين في دائرة حول صحون الطعام ، يرف عليهم ضوء المصباح الكبير ، المعلق في متجر سعيــد . يأكلون بنهم ، شأن الرجال الذين تعرق جباههم من الجهد سحابة يومهم . يأكلون الدجاج الحمر ، والملوخية بالمرق ، والبامية المصنوعة في الطاجن . في كل ليلة يذبــح أحدهم اما شاة صغيرة ، وإما حملاً . ويغدو عليهم أطفالهم بمزيد من الأكــل ، ينزل الصحن مليئاً وما يلبث أن يرتد فارغاً . هذا الوقت من الليل هو قمة يومهم ؛ لمثل هــذا تعمل زوجاتهم من طلوع الشمس إلى غروبها يأتيهم المرق في صحون عميقــة واللحم محمر في صحون بيضاوية واسعة . يأكلون الأرز وخبزاً سميكاً من القمح ، وفطائر رقيقة تصنع عــلى صاجات ملساء من الحديد . يأكلون الســمك واللحم والخضار ، والبصل والفجل ، لا يبالون ماذا يأكلون . حينئذ تتوتر عضلاتهم ، ويصبح حديثهم حاداً مبتوراً ، يتحدثون وأفواههم ملأى . ويأكلون في صخب تسمع صرير أسنانهم وهي تمضغ الطعام ، وإذا

شربوا وقرقت حلوقهم بالماء . يتكرعون بأصوات عالية ، ويمصمصون بشفاههم . وحين ترتد الأواني فارغة ، يؤتى بالشاي ، فيملأون أكوابهم ، ويشعل كل واحد منهم سيجارة، ويمد رجليه ويسترخي في جلسته . يكون الناس قد فرغوا من صلاة العشاء . يتحدثون في هدوء وقناعة ، ولعلهم حينئذ يشعرون ذلك الشعور الدافيء المطمئن ، الذي يحسه المصلون وهم يقفون صفاً خلف الإمام ، كتفاً بكتف ، ينظرون إلى نقطة بعيدة غامضة تلتقي عنـــدها صلواتهم . في هذا الوقت تخف الحدة في عيني محجوب، وهما سارحتان في الخط الضئيل الباهت الذي ينتهي عند ضوء المصباح ويبدأ الظلام (أين ينتهي ضوء المصباح ؟ وكيف يبدأ الظلام ؟) يعمق صمته وقتذاك ، وإذا سأله أحد أصدقائه فلا يسمع ولا يرد . هذا هو الوقت الذي يقول فيه ود الريس ، فجأة ، جملة واحدة كأنها حجر يقع في بركة : « الله حي » ، ويميل أحمد اسماعيل برأسه قليلاً ناحية النهر ، كأنه يستمع إلى صوت يأتيه من هناك . في مثل هذا الوقت أيضاً يطقطق عبد الحفيظ أصابعه في صمت ، ويتنهد الطاهر الرواسي ملء صدره ويقول : « روح يا زمان وتعال يا زمان » .

هل يحسون حينئذ أنهم يزدادون قرباً من تلك النقطة ؟ أم تراهم يدركون أن النقطة الغامضة الصامتة في الوسط ، أمر تلتقي الحياة ولا يلتقي اليها المرء ؟ .

« ابوي ... ابوي ... ابوي ... ابويا » .

اول من زغردت ام الزين .

كانت فرحة لاسباب عدة . فرحة فرح الأم الغريزي لزواج ابنها . تلك مرحلة حاسمة ، وكل أم تقول لابنها : « اشتهي ان افرح بزواجك قبل ان امـــوت » . وكانت ام الزين تحس ان حياتها تنحدر للغروب . ثم ان الزين كان ابنها الوحيد ، بل كان كل ما انجبت ، ولم يكن كبقية الناس ، فخافت ان تموت ولا يجد من يرعاه . فهذا الزواج اراح بالها . وزواج الزين مناسبة تسترد فيها هداياها لأهل البلد في زواج ابنائهم وبناتهم . وكان الناس احياناً يتعجبون وهم يرونها تسارع بدفع ربع الجنيه ونصف الجنيه في الاعراس ، لأيـة غاية ؟ « هل تظن انها ستردده في عرس الزين ؟ فكان عرس الزين مناسبة قطعت السنة الشامتين . والزين لن يتزوج امرأة من عامة الناس ، ولكنه سيتزوج نعمة بنت الحاج ابراهيم ، وناهيك بهـــذا دليلا على كرم الاصل ، والفضل ، والجاه ، والحسـب . ستدخــل ذلك البيت الكبير المبـــني من الطوب الاحمر (فليس كل بيوت البلد من الطوب الأحمر) ، تــدخل مرفوعة الرأس ، ثابتة الخطوة . سيقومون لها اذا دخلت ، ويوصلونهـــا البــاب اذا خــرجت ، ويعودونهـــا كل يوم اذا مـــرضت . ستقضي الايام الباقية في حياتها في فراش وثـــير من الرعاية والحب . ولعل القدر يمهلها فتحمل حفيدها او حفيدتهـــا في حضنهـــا . تزغـــرد ام الزين ، وتتوالرد هـــذه الخواطر في ذهنها ، فتشتد زغاريدها .

وزغرد معها جيرانها واحبائها ، واهلها وعشيرتها .
لكن كيف حدثت المعجزة ؟
اختلفت الاقاويل . قالت حليمة بائعة اللبن لآمنة ، وكأنها تغيظها بمزيد من انباء عرس الزين ، ان نعمة رأت الحنين في منامها ، فقال لها : « عرّسي الزين . اللي تعرّس الزين ما بتندم » . واصبحت الفتاة فحدثت اباها وامها ، فاجمعوا على الأمر . وهزت آمنة رأسها وقالت : « كلام » .
وزعم الطريفي لزملائه في المدرسة ان نعمة وجدت الزين في حشد من النساء ، يغازلهن ويعبثن به . فحدجتهن بنظرة صارمة وقالت لهن . « باكر كلكنْ تأكلن وتشربنْ في عرسه » . وخرجت من وقتها فقالت لأبيها وأمها ، فوافقا على ذلك .
وروى عبد الصمد للناس في السوق ، ان الزين هو الذي طلب الزواج من نعمة ، وانه صادفها في الطريق فقال لها : « بت عمي ؟ تعرسيني ؟ » فقالت نعم . وانه هو الذي ذهب الى عمه وكلمه في الامر فقبل الرجل .
الا ان المرجح ان الذي حدث غير هذا ، وان نعمة ، بما فيها من عناد واستقلال في الرأي ، وربما بوارع الشفقة على الزين ، او تحت تأثير القيام بتضحية ، وهو امر منسجم مع طبيعتها ، قررت ان تتزوج الزين . ويرجح ان معركة عنيفة دارت في بيت حاج ابراهيم بين الاب والام في طرف ، والبنت في الطرف الآخر . كان اخوتها غائبين فكتبوا لهم .

ويقال ان الاخوين الكبيرين رفضا البتة ، وان الاخ الاصغر قبل وقال في جوابه لابيه : « ان نعمة كانت دائماً عنيدة في رأيها . والآن وقد اختارت زوجها بنفسها فدعوها وشأنها ». خلاصة القول ان حاج ابراهيم اعلن النبأ فجأة . وكأن الناس كانوا يتوقعونه بعد حادث الحنين . الغريب ان احداً لم يضحك او يسخر ، ولكنهم هزوا رؤوسهم وزادت حيرتهم وهم ينظرون الى الزين – ينظرون اليه ، فيتضخم في نظرهم. وهكذا انطلقت عقيرة أم الزين بالزغاريد ، وزغرد معها جيرانها واحبائها واهلها وعشيرتها ، وكل من يتمنى لها الخير .

« ايوي ايوي ايوي ايوي ايويا » .

لو ان العرس لم يكن عرسه ، لميز الزين صوت كل منهن في زغاريدها .

هذه بت عبد الله ، صوتها عذب وصرختها قوية من كثرة ما زغردت في اعراس الآخرين . ظلت عانسا عمرها فلم تتزوج ، لكنها كانت تفرح لافراح كل احد في الحي .

« اجوج اجوج اجوج اجوجا » .

هذه سلامة ، كانت جميلة ، وكانت تنطق الياء هكذا وكانت مرهفة الحس . لم يسعدها جمالها ، فتزوجت وطلقت وطلقت وزوجت ولم تستقر مع رجل ولم تنجب اولاداً ، حلوة الحديث ، مهزارة ، لها مع الزين قصص وحكايات ، تزغرد لأنها تحب الحياة .

« ايوي . ايوي ايويا » .

هذه آمنة تزغرد من شدة غيظها . (هل تذكر آمنة وكيف ارادت البنت لابنها فقالوا لها البنت قاصر لم تصر للزواج ؟)

« اوو ... اوو ... اووا » .

هذه عشمانة الطرشاء، قلبها الاصم عربد بالحب في عرس الزين ثم اشتعلت شعلة من الزغاريد في دار حاج ابراهيم . قرابة مائتي صوت ، انطلقت مرة واحدة فارتجت نوافذ الدار .

وتزغرد ام الزين فيرد عليها النساء ، وتسمع زغاريدهن فتزغرد من جديد .

لم تبق امرأة لم تزغرد في عرس الزين .

وماج الحي من اركانه ، وامتلأت الدور بالوافدين ، لم يبقَ بيت الا انزلوا فيه جماعة من القوم . دار حاج ابراهيم على سعتها ، امتلأت ، ودور كل من محجوب، وعبد الحفيظ ، وسعيد ، واحمد اسماعيل ، والطاهر الروامي ، وحمد ود الريس . دار الناظر ، ودار العمدة ، وبيت القاضي الشرعي.

وقال شيخ علي لحاج عبد الصمد : « عرس زي دا الله خلقني ما شفت زيّه » .

وقال حاج عبد الصمد : « عليّ بالطلاق الزين عرّس عرس صح مو كدب » .

اجـرى الإمام مراسيم الزواج فـي المسجد . ناب حـاج ابراهيم عن ابنته ، وناب محجوب عن الزين . ولما تم العقد ، قـام محجوب ، ووضع المهر على صحن ، حتى يراه كل احد . مائـة جنيـه ذهباً ، وهي من حر مال حاج ابراهيم . وقف الامام بعد ذلك ، وادار عينيه في الرجال المجتمعين (كانت ام الزين المرأة الوحيدة بينهم) وقال ان الجميع يعلمون انه عارض هذا الزواج ، اما وان الله شاء له ان يتم فهو يسأله سبحانه وتعالى ان يجعله زواجاً سعيداً مباركاً . التفت الناس الى الزين ولكنـه كان مطرقاً . وقال محجوب لعبد الحفيظ بصوت خافت : « ايه لزوم ذكر المعارضة والكلام الفارغ؟» وعجبوا حين رأوا الامام يمشي نحو الزين ، ويضع يـده على كتفه ، فالتفت اليـه الزين بشيء من الدهشة . امسك الإمام يده وشد عليها بقوة ، وقال بصوت متأثر : « مبروك . ربنا يجعله بيت مال وعيال » . تلفت الزين حوله ببلاهة ، ولكن احمد اسماعيل نظر اليه نظرة صارمة فطأطأ برأسه .

دمدم طبل النحاس الكبير وهدر . يقولون انه يتكلم . وقالت بت عبدالله لسلامة : « النحاس يقول : الزين عرّس الزين عرّس » . فزغردت سلامة بصوتها الحلو .

تقاطر على الحفل عرب القوز ، يتسابقون على جمالهم ، فاستقبلهم الطاهر الرواسي ، وانزلهم في احـدى الدور ، وامر لهم بالطعام والشراب .

وجاء فريق الطلحة عن بكرة أبيه - على رأي المثل - فتصدى لهم احمد اسماعيل وانزلهم ، ربط دوابهم وجاء لها بالعلف ، ثم أمر لهم بالطعام فطعموا وشربوا .

وجاء الناس من بحري . وجاء الناس من قبلي .

جاؤا عبر النيل بالمراكب ، وجاؤا من أطراف البلد ، بالخيول والحمير والسيارات ، فأنزلوهم زمراً زمراً ، في كل بيت طائفة ، يقوم على خدمتهم أفراد العصابة ، فهذا يومهم : يعدون لكل شيء عدته لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة . لن يمسّوا طعاماً ، ولن يذوقوا شراباً ، حتى يأكل ويشرب الناس .

زغرودة منفردة ، ثم مجموعة زغاريد ، ثم طبل وحيد يهمهم ، ثم طبول كثيرة لأصواتها أصداء . ولوح الرجال بأيديهم وهزوا بالعصي والسيوف ، وأطلق العمدة من بندقيته خمس طلقات . وقالت آمنة لسعدية : « الأمة دي ان شاء الله تقدروا تكفّوها » . ولم تقل سعدية شيئاً .

نحرت الابل ، وذبحت الثيران ، ووكشت قطعان من الضأن على جنوبها . كل أحد جاء أكل حتى شبع وشرب حتى ارتوى .

وكان الزين يبدو مثل الديك ، لا بل اجمل ، مثل الطاووس . ألبسوه قفطاناً من الحرير الأبيض ، ومنطقوه بحزام أخضر ، وعلى ذلك كله عباءة من المخمل الأزرق ، فضفاضة يملأها الهواء فكأنها شراع ، وعلى رأسه عمامة

كبيرة تميـل قليلاً الى الأمام ، وفي يده سوط طويل من جلد التمساح ، وفي اصبعه خـاتم من الذهب ، يتوهـج في ضوء الشمس نهاراً ويلمع تحت وهج المصابيح بالليل ، له فص من الياقـوت ، في هيأة رأس الثعبان . كان منتشياً دون شرب من الضجـة الكبيرة التي تضج حـوله ، يبتسم ويضحك ، يدخل ويخرج بين الناس ، يهز بالسوط ، ويقفز في الهـواء ، يربت على كتف هذا ، ويجر هذا من يده ، ويحث هذا على الأكل ، ويحلف على هذا بالطلاق ان يشرب . وقـال له محجوب : « دَحين أصبحت بـني آدم . حلفتك بالطلاق يا دوب أصبح ليها معنى » .

جاء تجار البلد وموظفوها ووجهاؤها وأعيانها . وحضر أيضاً الحلب المرابطون في الغابة .

جيء بأحسن المغنيـات وأحسن الراقصـات ، ضاربات الدف وعازفي الطنابير . وأخـذت فطومة ، وكانت أشهر مغنية غربي النيل ، تشدو بصوتها المثير :

« انطقْ يا لسانْ جيب المديحْ اقداحْ
الزينْ الظريف ْ خلاّ البلد أفراحْ

وجرجروا الزين وأدخـلوه عنوةً حلبة الرقص . فهز بسوطه فوق المغنية ووضع على جبهتها ورقة جنيه . وتفجرت الزغاريد مثل الينابيع .

اجتمعت النقائض تلك الأيام . جواري الواحـة غنّين

ورقصن تحت سمع الإمـــام وبصره . كان المشايخ يرتلون القرآن في بيت ، والجـــواري يرقصن ويغنين في بيت ، المداحون يقرعون الطـــار في بيت ، والشبان يسكرون في بيت . كان فرحـــاً كأنـــه مجموعة أفراح . وكانت أم الزين ترقص مع الراقصين ، وتنشد مـــع المنشدين . تقف هنيهة تستمع للقرآن ، ثمّ تهرول خارجة إلى حيث يطهى الطعام ، تحث النســاء على العمل . وتجري من مكان إلى مـــكان وهي تنادي : « ابشروا بالخير . ابشروا بالخير »

وقالت حليمة ، بائعة اللبن ، تغيظ آمنة : « أريتـُه يا يمْ عرس السرور » .

نقرت « الدلاليك » نقـــرات نشيطة متحفزة دقـــات الدليب . وغنـّت فطومة :

« التمرْ البيفرق بـــدري سارقْ نومي شاغلْ فكري »

وقف الرجـــال في دائرة كبيرة ، تحيط بفتاة ترقص في الوسط ، ثوبها انحدر عن رأسها ، وصدرها بارز للأمـــام ، ونهداها نافران . ترقص كما تمشي الأوزة ، ذراعاها الى جانبيها تحركهما في تناسق مع رأسها وصدرها ورجليهـــا . ويصفق الرجال ويضربون الأرض بأرجلهم ، ويحمحمون بحـــلوقهم . وتضيق الدائرة على الفتاة ، فترمي شعرها الممشط المعطر على وجه أحدهم . ثم تتسع الدائرة . وتتاوج الزغاريـــد ، ويشتد التصفيق ، ويقوى وقع الأرجـــل على الأرض ، ويخرج الغناء سلساً ، ملحناً من حلق فطومة :

« الزولْ السّكونه ُقشابي   طولَ الليلْ عليــه بَشابي »

وانتشى ابراهيم ود طه من الغناء ، فصاح : « آه . قولي كان الله يرضى عليك » .

رقصت هشانة الطرشاء ، وصفق موسى الأعرج .ولم تلبث دقات الدلاليك أن أبطأت وأصبح لها أزيز مكتوم . هــذه نقرات الجابودي . وقويت حمحمة الرجال في حلوقهم .ودخلت سلامة حلبة الرقص . صالت وجالت ، وهي تزهــو وتختال مثل المهرة . كانت خير من يرقص الجابودي ، وكان لهــا معجبون كثيرون ، ترقبها عيونهم فتنفلت منها كالسمكة في الماء . كثفت حلقــة الرقص ، واشتد التصفيق ، وهدرت أصوات الرجال ، ودخل الزين الحلبة ، دخل من تلقاء نفسه هذه المرة ، طويلاً فوق سلامة ، فلطمته بشعرها الطويــل المنهدل فوق كتفيها ، وغمزته بعينها . وكان الإمام جالساً مع جماعة ، في ديوان حاج ابراهيم الذي يشرف على فناء الدار ، فحانت منه التفاتة ، ووقعت عينه على سلامة وهي منهمكة في رقصها . ورأى صدرها البارز ، ورأى كفلها الكبير ، حين تضرب برجلها يهتز ويترجرج ، منقسماً الى شقين كأنهما نصفا بطيخة ، بينهما وادٍ هبط فيه الثوب . وكانت سلامة في رقصها قد انثنت حتى أصبح جسمها في شكل دائرة ، فمس شعرهــا الأرض ، وزاد بروز صدرها ، ونتوء كفلها ، ورأى الإمــام ساقها اليمنى وجزءاً من فخذها الممتلىء ، وقد رفع عنه الثوب .

وحين عاد الإمام بوجهه الى محدثه ، كانت عيناه مربدتين مثل الماء المكر .

« ابيبيبيويا » .

هذه حليمة بائعة اللبن ، تزغرد طمعاً في خير تناله من أهل العرس .

وتحولت دقات الدلاليك الى المرضة . دقتان سريعتان وأخرى منفردة . وأخذ الرجال يرعون بأقدامهم كما تخب الخيل . وتقاطر عرب القوز على حلبة الرقص ، فتواثبوا وتصايحوا وطرقعوا بأسواطهم . رجال قصار القامات مشدودو العضلات ، اجسامهم ريانة ندية في مثل لون الأرض لأنهم يعيشون على لبن الابل ولحم الغزلان يلبس الواحد منهم ثوباً يربطه في وسطه ويلقي طرفيه على كتفيه . اذا قفز في الهواء لمع جسمه في ضوء الشمس يلبسون في ارجلهم اخفافا وفي ذراع كل منهم سكين في غمده . وتختلط أصوات الراقصين وضربات الدلاليك بدقات الطار ونشيد المداحين في البيت المجاور . هناك اجتمع حشد آخر في شكل دائرة ايضاً ويدور فيها رجلان كل منهما ممسك بالطار احدهما الكورتاوي وحميد المدّاحين . كان يقول :

« نِعم الصَّبا وروّح بي سَبَلْ القرُشْ شافْ
العَلَمْ لوّحْ زارْ جدّ الحسينْ »

وتدمع اعين الناس ، وبعضهم يجهش بالبكاء ، خاصة الذين

حجوا وزاروا مكة والمدينة والاماكن التي يصفها المادح .
ويمضي الرجل يهزج ، في صوت له بحة اشتهر بها :

« نعم الصبا وحادا
بي سهلْ القريشْ شاف العَلَمْ نادى
زارْ جدّ الحسين
فرشولُه الزبيبْ والتينْ والحَبْحَبْ.
كاسات من حيـا قالو له هاك اشربْ
زارْ جدّ الحسينْ »

وتختلط زغاريد النساء في حلقة المديح بزغاريد النساء في حلبة الرقص . وأحياناً يهاجر فـريق من حلبـة الرقص إلى حلقة المديح . هناك تتحرك أرجلهم ويثور حماسهم ، وهنـا تدمـع أعينهم . كذلك يتحـول فريق من حلقـة المديح إلى حلبة الرقص ، يهاجرون من الشوق إلى الصخب .

وفجأة تنبه محجوب .

أين الزين ؟

كان مشغولاً كبقية عصابته بتنظيم الفرح ، فاختفى الزين عن عينه .

سأل عنه كلاً من الباقين ، فقالوا ان أحـداً منهم لم يرَه منذ قرابة ساعتين . وقال عبد الحفيظ انـه يـذكر أنه رآه اخر مرة يستمع للمداحين .

بدأوا يبحثون عنه ، دون ان يحس أحد ، مخافـة ان يقلق الباقون . لم يجدوه مع الحشد المجتمع مع الإمام في

الديوان الكبير ، ولم يكن في حلقة المديح ، ولم يكن مع أي من جماعات الرقص المتناثرة في البيوت . دخلوا المطابخ حيث النسوة يزحفن أمام الأفران والقدور ، فلم يكن الزين هناك .

حينئذ أصابهم الذعر ، فإن الزين قد يفعل أي شيء ، قد ينسى أمر زواجه ، ويختفي كعادته .

وتفرقوا يبحثون عنه ، فلم يتركوا موضعاً . بعضهم ضرب في الصحراء قبالة الحي ، وبعضهم ذهب ناحية الحقول ، حتى ضفة النيل . دخلوا البيوت بيتاً بيتاً . تفرسوا تحت جذع كل نخلة وكل شجرة .

لم يبقَ إلا المسجد . لكن الزين لم يدخل المسجد في حياته ، كان الوقت أوائل الليل ، ليل كثيف مظلم . وكان المسجد ساكناً خاوياً ، قد تسرب الضوء من مصابيح العرس خلال نوافذه ، في خطوط مستطيلة من النور ، انعكس بعضها على السجاجيد ، وبعضها على السقف ، وبعضها على المحراب . وقفوا ينصتون فلم يسمعوا حساً ، إلا أصوات العرس تتناهى اليهم . ونادوا باسمه وبحثوا في أركان المسجد وفي ردهاته فلم يجدوا الزين .

وفقدوا الأمل . لا بد انه هرب . لكن الى أين ، والبلد كلها مجتمعة عندهم .

وبغتة خطر خاطر في ذهن محجوب ، فصاح: «المقبرة!». لم يصدقوا . ماذا يفعل في المقبرة في ذلك الوقت من الليل ؟

لكن محجوب سار أمامهم فتبعوه .

ساروا صامتين وراء محجوب بين القبور ، تتناهى اليهم أصوات الغناء والزغاريد عالية واضحة ، ثم خافتة بعيدة . كان المكان بلقعاً ، إلا من شجيرات السلم والسيال التي تناثرت بين المقابر ، وامتلأت الثغرات بين فروعها بالظلام فبدت كأنها سفن في لجة . وفي الوسط بدا الضريح الكبير غامضاً مخيفاً . وفجأة وقف محجوب وقال لهم : « اسمعوا » لم يسمعوا شيئاً أول الأمر ، فأرهفوا اذانهم ، فإذا بنشيج خافت يتناهى اليهم .

سار محجوب ، وساروا وراءه ، حتى وقف فوق شبح جاثم عند قبر الحنين . وقال محجوب : « الزين . الجابك هنا شنو ؟ » .

لم يرد ، ولكن بكاءه اشتد حتى أصبح شهيقاً حاداً .

وقفوا وقتاً يراقبونه في حيرة . ثم قال الزين في صوت متقطع ، يتخلله النحيب : « أبونا الحنين إن كان ما مات كان حضر العرس » .

ووضع محجوب يده على كتف الزين برفق وقال له : « الله يرحمه . كان راجل مبروك . لكن الليلة ليلة عرسك . الراجل ما بيبكي ليلة عرسه . يا الله أرح » .

وقام الزين وسار معهم .

وصلوا الدار الكبيرة ، حيث أغلب الناس ، فاستقبلتهم الضجة ، وغشيت عيونهم أول وهلة من النور الساطع المنبعث من عشرات المصابيح . كانت فطومة تغني، والدلاليك ترجر، وفي الوسط فتاة ترقص ، وحولها دائرة عظيمة فيها عشرات الرجال يصفقون ويضربون بأرجلهم ويحمحمون بحلوقهم . انفلت الزين ، وقفز قفزة عالية في الهواء فاستقر في وسط الدائرة . ولمع ضوء المصابيح على وجهه ، فكان ما يزال مبللاً بالدموع . صاح بأعلى صوتـــه ، ويده مشهورة فوق رأس الراقصة : « أبشروا بالخير .. ابشروا بالخير » . وفار المكان، فكأنه قدر تغلي ، لقد نفث فيه الزين طاقة جديدة . وكانت الدائرة تتسع وتضيق ، تتسع وتضيق ، والأصوات تغطس وتطفو ، والطبول ترعد وترجر ، والزين واقف في مكانه في قلب الدائرة ، بقامته الطويلة ، وجسمه النحيل ، فكأنـــه صاري المركب .